بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم :

❖ ـ [الفصـل الأول]

ـ ﴿ ۞ نصـوص مـن عيـون كتـب البلغـاء۞ ﴾ـ

📖📖📖📖📖

قال أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ :

﴿ أمّـا بعـدُ ؛ فـإنّي قـد تـصفّحت أخلاقـك ، وتـدبّرت أعراقـك ، وتأمّلـت شيمك ، ووزنتك فعرفت مقدارك ، وقوّمتك فعلمت قيمتك ، فوجدتك قد ناهزت الكمال ، وأوفيت على التّمام ، وتوقّلت في درج الفضائل ، وكـدت تكون منقطع القرين ، وقاربت أن تلفـى عـديم الـنّظير، لا يطمـع فـضل أن يفوتك ، ولا يأنف شريف أن يقصر دونك ، ولا يخشع عالم أن يأخذ عنك. ووجدتك في خلال ذلك على سبيل تضييع وإهمال لأمـرين : همـا القطـب الذي عليه مقار الفـضائل ، فكنـت أحـقّ بالعـدل ، وأقمـن بالتأنيـب ممـن لم يسبق شأوك ، ولم يتسنّم رتبتك ، لأنه ليس ملوماً على تضييع القليل من قد أضاع الكثير، ولا يسام إصلاح يومه وتقويم ساعته من قد استحوذ الفساد على دهره ، ولا يحاسب على الزّلّة الواحدة من لا يعدم منه الزلل والعثار ، ولا ينكر المنكر على من ليس مـن أهـل المعـروف ، لأنّ المنكـر إذا كثـر صـار معروفاً ، وإذا صار المنكر معروفاً صار المعروف منكراً.

وكيف يعجب ممن أمره كلّه عجب، وإنّما الإنكار والتعجّب ممن خرج عن مجرى العادة، وفارق السّنّة والسجيّة.

وقيل: «الكامل من عدّت سقطاته»، وقيل: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه خيراً من غده فهو مفتون، ومن كان غده خيراً من يومه فذلك السعيد المغبوط».

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

رأيتك أمس خير بنى معدٍّ
وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ.
وأنت غداً تزيد الضعف خيراً
كذاك تزيد سادة عبد شمسِ.

وقال آخر في معن:

أنت امرؤٌ همّك المعالي
ودلو معروفك الربيعُ.
أنت امرؤ من وائلٍ صميمٍ
كالقلب تحنى له الضلوعُ.
في كلّ عام تزيد خيراً
يشيعه عنك من يشيعُ.

والأمران اللذان نقمتهما عليك: وضع القول في غير موضعه، وإضاعة السّرّ بإذاعته.

وليس الخطر فيما أسومك وأحاول حملك عليه بسهل ولا يسير؛ وكيف وأنا لا أعرف في دهري ـ على كثير عدد أهله ـ رجلاً واحداً ممن ينتحل الخاصّة، وينسب إلى العلية، ويطلب الرياسة ، ويخطب السّيادة، ويتحلّى بالأدب، ويديم الثّخانة والزّماتة، والحلم والفخامة، أرضى ضبطه للسانه، وأحمد حياطته لسرّه؛ وذلك أنّه لا شيء أصعب من مكابدة الطبائع، ومغالبة الأهواء، فإن الدّولة لم تزل للهوى على الرأي طول الدهر؛ والهوى هو الدّاعية الى إذاعة السر، وإطلاق اللسان بفضل القول. وإنّما سمّى العقل عقلاً وحجراً، قال تعالى ﴿ هَلْ فِي ذٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ۝ ﴾.

لأنّه يزمّ اللسان ويخطمه، ويشكله ويربثه، ويقيّد الفضل ويعقله عن أن يمضى فرطاً في سبيل الجهل والخطأ والمضرّة، كما يعقل البعير، ويحجر على اليتيم؛ وإنّما اللسان ترجمان القلب، والقلب خزانة مستحفظة للخواطر والأسرار، وكلّ ما يعيه [من] ذلك عن الحواسّ من خير وشرّ، وما تولّده الشّهوات والأهواء، وتنتجه الحكمة والعلم.

ومن شأن الصدر ـ على أنه ليس وعاء للأجرام، وإنّما يعى بقدرة [من] الله لا يعرف العباد كيف هي ـ أن يضيق بما فيه، ويستثقل ما حمل منه، فيستريح الى نبذه، ويلذّ إلقاءه على اللسن. ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه في خلواته حتى يفضي به الى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه؛ كلّ ذلك

ما دام الهوى مستولياً على اللّسان، واستعمل فضول النّظر فدعت الى فضول القول.

فإذا قهر الرأي الهوى فاستولى على اللسان، منعه من تلك العادة، وردّه عن تلك الدّربة، وجشّمه مؤونة الصّبر على ستر الحلم والحكمة.

ولا شيء أعجب من أنّ المنطق أحد مواهب الله العظام، ونعمه الجسام، وأن صاحبها مسؤول عنها، ومحاسب على ما خوّل منها، أوجب الله عليه استعمالها في ذكره وطاعته، والقيام بقسطه وحجّته، ووضعها مواضع النّفع في الدين والدنيا، والإنفاق منها بالمعروف لفظة لفظة، وصرفها عن أضدادها؛ فلم يرض الإنسان أن عطّلها عمّا خلقت له مما ينفعه حتّى استعملها في ضدّ ذلك مما يضرّه، فاجتمع عليه الإثمان اللذان اجتمعا على صاحب المال الذي كنزه ومنعه من حقّه، فوجب عليه إثم المنع وإن كان لم يصرفه في معصية، ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها.

وهذه غاية الغبن والخسران.

نعوذ بالله منهما.

فاللسان أداة مستعملة، لا حمد له ولا ذمّ عليه، وإنما الحمد للحلم واللّوم على الجهل؛ فالحلم هو الاسم الجامع لكلّ فضل، وهو سلطان العقل القامع للهوى؛ فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشّرّة، وإسقاط طائر الخرق بأحقّ بهذا الاسم، ولا أولى بهذا الرسم، من قمع فرط الرضا وغلبة

الشهوات، والمنع من سوء الفرح والبطر، ومن سوء الجزع والهلع، وسرعة الحمد والذم، وسوء الطّبع والجشع، وسوء مناهزة الفرصة، وفرط الحرص على الطّلبة، وشدّة الحنين والرقّة، وكثرة الشكوى والأسف، وقرب وقت الرضا من وقت السّخط، ووقت التسخط من وقت الرضا، ومن اتّفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف، وفي غير نفع ولا جدوى.

واعلم يقيناً أن الصّمت سرمداً أبداً، أسهل مراماً ـ على ما فيه من المشقّة ـ من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز، والقصد للصّواب، لما قدّمنا ذكره من علة مجاذبة الطّباع، ولأنّ من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار. وبهذه الجبلّة التي جبل عليها الناس نقلت الأخبار عن الماضين الى الباقين، عن الغائب الى الشاهد، وأحبّ الناس أن ينقل عنهم، ونقشوا خواطرهم في الصّخور، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل؛ وبذلك ثبتت حجّة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء، ولم يحضر آيات الرّسل، وقام مجيء الأخبار عن غير تشاعر ولا تواطؤ مقام العيان، وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتدبيرات والعلامات، وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة الى قبول الإخبار عن الرسل، وسلّماً الى التصديق، وعوناًعلى الرضا بالتقليد.

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلّت هذا المحلّ؛ ولكن الله ـ عزّ وجلّ ـ حبّبها إليهم لهذا السبب، كما جعل عشق

النّساء داعية للجماع، ولذّة الجماع سبيلا للنّسل، والرّقة على الولد عوناً على التربية والحضانة ـ وبهما كان النشوّ والنماء ـ وحبّ الطعام والشراب سبباً للغذاء، والغذاء سببًا للبقاء وعمارة الدنيا.

فعسر على الإنسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة، والانقياد لهذه الطبيعة، وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهل من مجاذبة الطباع؛ فاعتراه الكرب لكتمان السرّ، وغشيه لذلك سقم وكمد يحسّ به في سويداء قلبه بمثل دبيب النمل، وحكّة الجرب، ومثل لسع الدّبر ووخز الأشافي، على قدر اختلاف مقادير الحلوم والرّزانة والخفّة؛ فإذا باح بسرّه فكأنه أنشط من عقال.

ولذلك قيل: «الصّدر إذا نفث برأ» .

وقيل:

((ولا بدّ من شكوى إذا لم يكن صبرُ))

وليس قولنا « طبع الإنسان على حبّ الإخبار والاستخبار» حجّة له على الله، لأنّه طبع على حب النّساء ومنع الزّنى، وحبّب إليه الطعام ومنع من الحرام؛ وكذلك حبّب إليه أن يخبر بالحقّ النافع ويستخبر عنه، وجعلت فيه استطاعة هذا وذاك، فاختار الهوى على الرأى.

وممّا يؤكّد هذا المعنى في كرب الكتمان وصعوبته على العقلاء فضلاً عن غيرهم، ما رووه عن بعض فقهائهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يحتملها العوامّ، فضاق صدره بها، فكان يبرز الى العراء فيحتفر بها حفيراً يودعها

دنّاً، ثم ينكبّ على ذلك الدّنّ فيحدّثه بما سمع، فيروّح عن قلبه، ويرى أن قد نقل سرّه من وعاء الى وعاء.

وكان الأعمش سيّء الخلق غَلِقَاً، وكان أصحاب الحديث يضجرونه ويسومونه نشر ما يحبّ طيّه عنهم، وتكرار ما يحدّثهم به، ويتعنّتونه، فيحلف لا يحدّثهم الشهر والأكثر والأقلّ، فإذا فعل ذلك ضاق صدره بما فيه، وتطلّعت الأخبار إلى الخروج منه، فيقبل على شاة كانت له فيحدّثها بالأخبار والفقه، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول: « ليت أنّى كنت شاة الأعمش» .

وشكا هشام بن عبد الملك ما يجد من فقد الأنيس المأمون على سرّه؛ فقال: أكلت الحامض والحلو حتّى ما أجد لهما طعماً، وأتيت النساء حتى ما أبالى أمرأة لقيت أم حائطاً، فما بقيت لي لذّة إلا وجود أخ أضع بيني وبينه مؤونة التحفّظ.

وقال معاوية لعمرو بن العاص: ما اللذة؟؛ قال: تأمر شباب قريش أن يخرجوا عنا ؛ ففعل؛ فقال: اللّذّة طرح المروءة.

وقد صدق عمرو، ما تكون الزّماتة والوقار إلا بحمل على النفس شديد، ورياضة متعبة.

وقال بعض الشعراء:

ألم تر أنّ وشاة الرجالِ
لا يتركون أديماً صحيحا

فلا تفش سرّك إلا إليكَ

فإنّ لكلّ نصيحٍ نصيحا

والسرّ ـ أبقاك الله ـ إذا تجاوز صدر صاحبه وأفلت من لسانه إلى أذن واحدة فليس حينئذ بسرّ، بل ذاك أولى بالإذاعة، ومفتاح النّشر والهرة؛ وإنّما بينه وبين أن يشيع ويستطير أن يدفع إلى أذن ثانية. وهو مع قلّة المأمونين عليه، وكرب الكتمان، حريّ بالانتقال إليها في طرفة عين.

وصدر صاحب الأذن الثانية أضيق، وهو إلى إفشائه أسرع، وبه أسخى، وفي الحديث به أعذر، والحجّة عنه أدحض.

ثم هكذا منزلة الثالث من الثاني، والرابع من الثالث؛ أبداً الى حيث انتهى.

هذا أيضاً إذا استعهد المحدّث واستكتم، وكان عاقلاً حليماً، وناصحاً وادا، فكيف إذا أخبر ولم يؤمر بالكتمان، وكان ممن يمشى بالنّمائم ويحبّ إفشاء المعايب، وكانمن ينطوى على غشّ أو شحناء، أو كان له في إظهاره اجتلاب نفع أو دفع ضرر ؟!.

فاللّوم إذ ذاك على صاحب السرّ أوجب، وعمّن أفضى به إليه أنزل، لأنه كان مالكاً لسرّه فأطلق عقاله، وفتح أقفاله، وسرّحه فأفلت من قيده ووثاقه، وصار هو العبد القنّ المملوك لمن ائتمنه على سرّه، وملّكه رقّ رقبته، فإن شاء أحسن ملكته لحفظ ذلك السّرّ فجزّ ناصيته، وجعله رهينة ليوم عتبه عليه؛ وقلّ من يحسن الملكة، ويحرس الحرّيّة أو يضبط نفسه، فإنه ربّما لم يخرجه غشّاً فأخرجه سخفاً وضعفاً؛ وإن أساء الملكة وختر الأمانة

فأطلق السرّ واسترعاه من هو أشدّ له إضاعة، فسفك الدم وأزال النعم وكشف المودة وفرّق بين الجميع، وإن كان المضيع لسرّه ألوم.

قال الشاعر:

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه

فصدر الذي يستودع السرّ أضيقُ.

فمن أسوأ حالاً، وأخسر مكاناً، وأبعد من الحزم، ممن كان حرّاً مالكاً لنفسه فصيّر نفسه عبداً مملوكاً لغيره، مختاراً للرّقّ، من غير أسر ولا قسر؟!؛ والعبيد لم يصبروا على الرقّ إلا بذلّ الأسر والسّباء.

ومن كان سرّه مصوناً في قلبه يطلب إليه في الحديث به فأخرجه عن يده، صار هو الطالب الراغب إلى من لا يوجب له طاعة، ولا يفكّر له في عاقبة، ولا يتحرّز له من مصيبة.

وكلّما كانت إذاعته لأسراره أكثر كان عدد مواليه أكثر، وشقاؤه بخدمتهم أدوم.

فإذا كان أصل السرّ معلوماً عند عدّة أو أقلّ من العدّة، فما أعسر استتاره؛ غير أنّه لا لوم على صاحب الخيانة فيه إذا كان ليس هو الذي أفشاه، ولا من قِبَلِه عُلِم.

ولو أنّ أوزن الناس حلماً ملك لسانه وحصّن سرّه وقلّل لفظه، ما قدر على أن يملك لحظ عينيه، وسحنة وجهه، وتغيّر لونه، وتبسّمه أو قطوبه؛ عند ما يجرى بلبّه من ذكر ذلك السرّ، أو يخطر بباله منه، فيبدو في وجهه ومخايله

إذا عرّض بذكره، أو سنح له نظير أو مثيل، أو حضر من له فيه سبب ؛ إلا بعد التصنّع الشديد، والتحفّظ المفرط.

فإذا كان يعرف من هذه الجهات وما أشبهها، ويطّلع عليه بتظنّن المرجّمين، والمتعقّبين للأفعال والأقوال، والنظر في مصادر التدبير ومخايل الأمور، فيفشو من هذه الجهات أكثر مما تفشيه ألسن المذاييع البذر.

فكيف إذا أطلق به اللسان، وعوّد إذاعته القلب ؛ والعادة أملك بالأدب؟!!.

وربّما أدركه الحدس، وقيّضه الظنّ، فنالت صاحبه فيه خدعة، بأن يذكر له طرف منه، ويوهم أنه قد فشا وشاع، فيصدّق الظنّ فيجعله يقيناً، ويفسّر الجملة فيصيّرها تفصيلاً ، فيهلك نفسه ويوبقها!!.

فإن الأمر في ذلك كما قال الشاعر:

وما كلّ ذي لبٍّ بمؤتيكَ نصحهُ

ولا كلّ مُؤتٍ نصحهُ بلبيبِ.

ولقد استحسن الناس من بعض رجال العراق أنّه دخل على عبد الملك ابن مروان فأوقع بالحجّاج عنده وسبّه، فلمّا خرج من عنده خبّر بما كان منه لبعض أصحابه، فلامه وأنّبه ؛ وقال: ما يؤمنك أن يخبر أمير المؤمنين عبد الملك الحجاج بما قلت فيه ـ ومرجعك الى العراق ـ فيضغنه عليك؟!!.

قال: كلا، والله إنّي ما رطلت بيدي قطّ أحداً أرزن منه.

وهذا والله ـ أبقاك الله ـ الغلط البيّن، والعذر الملفّق، وتحسين فارط الخطأ، لأنّه ليس كلّ راجح وعاقل بناصح لصاحب السرّ، ولو كان أخوه كذلك

كان أمره إليه أهمّ، وشأنه أولى؛ والأعلى من الناس لا يكلّف الأدنى هذه المؤونة، وإنّما يفعلها الأدنون بالأعلين رغبة ورهباً، وتحسّساً عندهم بحاجتهم إليهم.

وأكثر ما يذيع أسرار الناس أهلوهم وعبيدهم، وحاشيتهم وصبيانهم، و [من] لهم عليهم اليد والسلطان؛ فالسرّ الذي يودعه خليفة في عامل له يلحقه زينه وشينه، أحرى ألا يكتمه.

وهذا سبيل كل سرّ يستودعه الجِلّة والعظماء، ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقه اللائمة.

وقال سليمان بن داود في حكمته: ليكن أصدقاؤك كثيراً، وصاحب سرّك واحداً من ألف.

وليس معنى الحديث أن تعدّ ممن تعرف ألفاً وتفضى إلى واحد بسرّك إن لم يكن ذلك الواحد موضعاً للأمانة في السرّ. !! لكنه قيل: رجل يساوي ألف رجل، ورجل لا يساوي رجلاً؛ وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة ».

فكلّ ذلك يراد به أنّ الفضل قليل والنقص قليل لا على نسب ما يتلقّاه الاجتماع من هذه الأعداد، لأنّا قد نجد الرجل يوزن بالأمّة، ونجد الأمّة لا تساوى قلامه ظفر ذلك الرجل.

فإذا كان من تقع عليه الشّريطة معدوماً؛ سيّما من يوثق بحلمه وعقله، وأمانته ونصحه، ومن لا ضرر عليه ولا نفع له في السّرّ الذي يضمر ولا

يحرّم عليه كتمانه، ومن قد وأى على نفسه بالسّرّ والحفظ، فإنه ليس كلّ من ضمّن فلم يضمن ضامناً، ولا من استودع فلم يقبل مستحفظاً، ولا من استخلف فلم يخلف خائناً، وإنما يلحقه الحمد والذمّ، والأجر والإثم؛ إذا ضمّن الأمانة ثم خترها؛ فكأنّ القوم قالوا: لا تودعنّ سرّك أحداً.

وإلا فمتى تجد رجلاً فيه الصفة التي وصف بها مسكين الدّارميّ نفسه حيث يقول:

إنّي امـرؤٌ منّى الحيـاء الـذي ترى
أنـوء بـأخـلاق قـلـيـل خداعـهـا
أواخي رجالاً لست أطلع بعضهم
على سـرّ بعـضٍ غير أنّي جماعها
يظلّـون شتّـى فـي البـلاد وسـرّهـم
إلى صخـرةٍ أعيا الرجـال انصداعها

وقيل لرجل: كيف كتمانك للسّرّ؟؛ قال: أجعل قلبي له قبراً أدفنه فيه إلى يوم النّشور.

وقال الآخر:

((وأكتـم السّـرّ فيـه ضـربـة العنـقِ.)).

وهذه صفات موجودة بالأقوال، معدومة بالأفعال. والمغرور من اغترّ بما يعده الواعد منها دون أن يبلو الخبر.

والذي جربناه ووجدناه: أنّ من يفضى إليه بالشيء، يبلغ من إذاعته ونشره ما لا يبلغه الرسول المستحفظ المعنىّ بتبليغ الرسالة، المحمود المجازى على أدائها، حتّى ربّما كان يبلغ في الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاغة من الرجال، المعروف بالنّميمة والتقتيت، فيوهمه أنه قد استحفظه السرّ، فيشيع على لسانه كما يشيع الضوء في الظّلمة.

وهذا فعل عمر بن الخطّ ب ـ رضى الله عنه ـ حين أحبّ أن يشيع إسلامه؛ فقال: من أنمّ أهل مكة؟ ؛ قيل له: جميل بن النّحيت؛ فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتمه عليه؛ فلم يمس وبمكّة أحد لم يعلم بإسلام عمر ـ رضي الله عنه ـ.

ثم يكون من أكثر الأعوان على إظهار السرّ الاستعهاد له، والتّحذير من نشره، فإنّ النّهى أغرى، لأنّه تكليف مشقّة، والصبر على التكليف شديد، وهو حظر، والنفس طيّارة متقلّبة، تعشق الإباحة وتغرم بالإطلاق.

ولعلّ رجلاً لو قيل له: لا تمسح بهذا الجدار ـ وهو لم يمسحها به قطّ ـ ؛ غري بأن يفعل.

وكذلك ما حدّث به من السرّ فلم يؤمر بستره، لعلّه ألا يخطر بباله، لأنّه موجود في طبائع الناس الولوع بكلّ ممنوع، والضّجر بكل محصول.

فنريد أن نعلم: لم صار الإنسان على ما منع ـ وإن كان لا ينفعه ـ أحرص منه على ما أبيح من غير علّة ولا سبب إلا امتهان ما كثر عليه، واستطراف

ما قلّ عنده؟!!.ولم أقبل على من ولّى عنه وولّى عمّن أقبل عليه؟!!. ولم قالوا: إذا جدّت المسألة جدّ المنع؟!!.

وقال الشاعر:

الحرّ يلحى والعصا للعبدِ وليس للملحف مثل الرّدِّ.

وربّ كلام قد ملأ بطون الطّوامير قد عرف جملته وما فيه الضّرر منه، بسحاءة أو طابع، أو لحظة مطّلع في الكتاب، أو حرف تبيّن من ظهره.

فاستيقظ عند هذه الأحوال، واستعمل سوء الظّنّ بجميع الأنام، فإنه روى ع ـ ﷺ ـ أنه قال: «الحزم سوء الظنّ».

وقيل لثقيف: بم بلغتم ما بلغتم من الشّرف والسؤدد؟ ؛ قالوا: بسوء الظنّ. فلا تعتمد على رجل في سرّك تحمد عقله دون أن تحمد ودّه ونصحه، ولم صار يتمنّى الشّيء وينذر فيه النّذور، ويتقطّع إليه شوقاً، فإذا ظفر به صدّ عنه وأخلق عنده؟!! ولم زهد الملوك فيما في أيديهم ورغبوا فيما في أيدي الناس؟!!.

فنقول: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ جعل لكلّ نفس مبلغاً من الوسع لا يمكنها تجاوزه، ولا تتّسع لأكثر منه ؛ فكان معها فيما دون الوسع الفقر وخوف الإخوان، وفيما تجاوزه عزّ الغنى وأمن العدم. وبهذا وبمثله من البخل والحرص استخفّت من احتاج إليها، وأعظمت من استغنى عنها ؛ وجعلها توّاقة مشتاقة، متطرّفة ملالة، كثيرة النزاع والتقلب، تستحكم عليها الفتنة، ويبلى خيرها [من شرّها] وصبرها من جزعها.

ولولا هذه الخلال سقطت المحن، فهي تعظّم القليل بالضّرورة إليه إن كان من أقواتها، أو لشدّة النّزاع والشوق إن كان من طرف شهواتها، فإنّ صنوف الشهوات كثيرة، ولكلّ صنف منها أهل لا يحفلون بما سواه؛ وتتعجّب من الغريب النادر، ويضحكها البديع الطارىء. إلا أنّه إذا كثر الغريب صار قريباً، وإذا تجاوز المطلوب مقدار وسعها وحاجتها فصار ظهريّاً وفضلاً استخفّت به وقلّ في أعينها كثيره؛ وأعظم الأشياء عندها قدراً ما اشتدّ إليه الفقر والحاجة وإن قلّ قدره، وأهونها عليها ما استغني عنه وإن عظم خطره؛ وجعل لما تتوق إليه واشتاقه مكاناً من قواها له؛ فإذا امتلأ ذلك المكان سروراً، وقضى ذلك الأرب وطراً مما كا طمح إليه، وروي مما كان ظامئاً إليه، انصرف عنه وقلاه، وحال عشقه بغضاً، وشوقه ملالاً

والعلّة في ذلك: أنّ الدّنيا دار زوال وملال، ليس في كيانها أن تثبت هي ولا شيء مما فيها على حال واحدة، وإنّما الثّبوت الدائم لدار القرار.

فالسآمة تلحقها في محبوبها، كما يصيب المنتهى من الطعام والشراب والباه، فإنه ليس شيء أبغض إلى من يتناهى فيه إلى غايته، من النّظر إلى ناحيته، فضلاً عن ملابسته، إلى وقت عودة السبب الأوّل.

فإذا كانت الطبائع تتشابه، ولكل حاسّة قوة، فإذا امتلأت تلك القوّة من محسوسها لم تجد لها وراءه طعماً ولا ريحاً، وعاد عليها الضّرر؛ فبعض النظر يعمى، والصّوت الشديد يصمّ، والرائحة المنتنة تبطل المشمّ، والأطعمة الحارّة المحرقة تبطل حاسّة اللسان.

وتتطرّف كلّ واحدة منها، فبين الطيّب عند من بعد عهده [به] ؛ ، والجماع والسّماع، وبين من هو مغموس فيه بون بعيدٌ جداً، في الحلاوة وحسن الموقع ؛ كلّ ذلك ما لم يأت المال والعلم، فإنّه كلّما كثر كان أشهى وأعجب، لأنّ قصد النّاس له ليس لطلب مقدار الحاجة وسدّ الخلّة كما يريده أهل القناعة والزّهادة، وإنّما يراد لقمع الحرص، والحرص لا حدّ له ولا نهاية، لأنه سعى لا لحاجة، وإيضاع لا لبغية.

وهكذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « لو أنّ لا بن آدم واديين من ذهب لا بتغى إليهما ثالثاً ؛ ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » .

وقال بعض الحكماء:

من كان لا يغنى بما يغنيه فكلّ ما في الأرض لا يغنيه.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا.﴾ .

وقال: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ.﴾ .

. وقال الشاعر:

والناس إن شبعت بطونهمُ فعيونهم في ذاك لا تشبعُ.

فأمّا الحديث الذي جاء: «لا يشبع أربع من أربعة: أرض من مطر، وعين من نظر، وأنثى من ذكر، وعالم من علم» ؛ فإنّ العين لا تشبع في الجملة كما لا يشبع الخيشوم من الاستنشاق ؛ فأمّا من صنف مما يراه دون صنف، فإنه يشبع ويروى، ويصدّ ويصدف الى غيره.

وأمّا العلم فإنّه أوسع من أن يحاط به، فمن طلبه لشرفه وفخره فإنه لا حدّ له ولا نهاية، ولم يزدد له طلباً إلا ازداد فيه رغبة ؛ ومن طلب منه مقدار كفايته وحاجته كفاه منه اليسير؛ على أنه لا يملك من كثر علمه أن يرى فيه الغنى والكبرياء أيضاً ؛ وقد يملّ كما يملّ كلّ شيء ؛ وتملّ العين أيضاً منه ومن المال.

وقيل: اثنان منهومان: طالب علم وطالب دنيا.

وهذه القضيّة تدلّ على الخروج عن العقل، لأن النّهم تجاوز القدر.

وأمّا الحرص على الممنوع الذي لا ينتفع به، والعجب مما يتعجّب من مثله، فليس من أخلاق العقلاء. وما لم يكن في أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه، وإنما ذلك فعل من استوحش من الحجّة، وشرد عن علم العلل والأسباب.

وإفشاء السرّ إنما يوكّل بالخبر الرائع، والخطب الجليل، والدفين المغمور، والأشنع الأبلق، مثل سرّ الأديان لغلبة الهوى عليها، وتضاغن أهلها بالاختلاف والتضادّ، والولاية والعداوة ؛ ومثل سرّ الملوك في كيد أعدائهم ومكنون شهواتهم ومستور تدبيراتهم، ثم من يليهم من العظماء والجلّة، لنفاسة الملوك على العوامّ، وأنّهم سماء مظلّة عليهم، أعينهم إليها سامية، وقلوبهم بها معلّقة، ورغباتهم ورهباتهم إليها مصروفة. ثم عداوات الإخوان، فإنّما صارت العداوة بعد المودّة أشدّ لاطّلاع الصديق على سرّ صديقه، وإحصائه معايبه، وربّما كان في حال الصّداقة يجمع عليه السّقطات

ويحصى العيوب، ويحتفظ بالرّقاع، إرصاداً ليوم النّبوة، وإعداداً لحال الصّريمة.

وقد شكا بعض الملوك تنقيب العوامّ عن أسرار الملوك ؛ فقال:

ما يريد الناس منّا
ما ينام الناس عنّا
لو سكنّا باطن الأر
ض لكانوا حيث كنّا
إنما همّهم أن
ينشروا ما قد دفّنا

ولم نرى حبّ الطعن على الملوك، والتجسّس على أخبارهم، وعشق نشرالمعايب، واستحلال الغيبة، ظاهراً في طباع الناس لا يكاد ينجو منه أحد منهم إلا من رجح حلمه وعظمت مروءته، وظهر سؤدده، واشتدّ ورعه، حتى قال بعضهم: «الغيبة فاكهة النّسّاك».

ورووا عن بعضهم أنه قال: «الفاسق لا غيبة له».

وقال آخر: «أترعون من ذكر الفاسق؟!! ؛ اذكروه يعرفه الناس».

ولم نر الله ـ جلّ ثناؤه ـ رخّص في اغتياب مؤمن، بل ضرب المثل في الغيبة بأكره ما تكرهه النّفوس، وما تختار منه الموت على الحياة، فقال: ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ. ﴾.

واغتياب الناس جميعاً خطة جور في الحكم، وسقوط في الّهمة، وسخافة في الرأي، ودناءة في القيمة، وكلفة عريضة، وحسد ونفاسة قد استحوذت على هذا العالم وغلبت على طبائعهم، وتوكّدت لسوء العادة عندهم، ولعلوّ الشرّ على الخير، وكثرة الدّغل والنّغل والحسد في القلوب؛ فلست ترى منها ناجيا؛ إمّا ناظر بعين عدل وإنصاف، فهو يرى ما ينكر فيبدو في وجهه ولسانه؛ وإما ناظر بعين

.البغضاء والعداوة؛ فهو .كثيراً ما يجد من العيوب في عدوّه ما يعينه على التخرّص عليه فيقوّيها ويزيد فيها؛ وإن عدم الحقّ تقول وقبّح الحسن، وزاد في قبح القبيح؛ والحديث كلّه ـ إلا ما لا بال به ـ ذكر النّاس، ولغو وخطل، وهجر وهذاء، وغيبة وهمز ولمز.

وقال بعض الحكماء لابنه: يا بنيّ!! إنّما الإنسان حديث، فإن استطعت أن تكون حديثاً حسناً فافعل.

وكلّ سرّ في الأرض إنّما هو خبر عن إنسان، أو طيّ عن إنسان، فله في الغيبة أكثر الحظّ، وجلّها كلفة لا ضرورة، يرى صاحبها أنه قد أهمل محاسبة نفسه، وغفر ذنوبها وألغى عيوبها، وقصد قصد غيره، فتشاغل عمّا يعينه بما لا يعنيه، فأنكر أقواله وأفعاله، وهجر تدبيره، وتعجّب من مقابحه، وجهد نفسه في تفقّد أموره؛ليس ذلك عن عناية بصلاحه، ولا محبّة لتقويمه وتهذيبه، ولا أنّه مسيطر عليه ولا محمود عنده على ما عني به من شأنه، بل هو عنده عين المذموم.

وهذا جلّ حديث البشر وشغلهم في الليل والنهار.

قال بعض الحكماء: فضول النظر تدعو الى فضل القول، وفضول الخواطر تبعث على اللهو والخطل.

ولو كان الرجل لا يتكلّم إلا بما يعنيه؛ ولا يتكلّف ما قد كفيه، قلّ كلامه؛ ولو حكّم العدل في أموره، وفيما بينه وبين خالقه، وبينه وبين إخوانه ومعامليه، لطاب عيشه وخفّت مؤونته والمؤونة عليه، فإنّ الله - تبارك وتعالى - لميخلق مذاقاً أحلى من العدل، ولا أروح على القلوب من الإنصاف، ولا أمرّ من الظّلم، ولا أبشع من الجور.

وقال بعض المتقدّمين: «إنما يعرف الظّلم من حُكِمَ به عليه».

ومن استعمل العدل دلّه على أنّ النّاس يجدون من طعمه وطعم الظلم إذا فعله بهم مثل الذي يجد إذا ظلم، فكره لهم ما كره لنفسه، فأنصف ولم يظلم.

ويتظالم الناس فيما بينهم بالشّره والحرص المركّب في أخلاقهم، فلذلك احتاجوا الى الحكّام - وقد أطلق لهم تصريف أخلاقهم وأماناتهم - التي ردّت إليهم بالأحكام فيها، ما جنايته عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم.

وقال بعض الحكماء: إنّ من أصعب الأعمال إنصافك في نفسك، ومواساتك أخاك في مالك، وذكر الله؛ أما إنّي لا أعنى قول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر- وإنّ ذلك لمن ذكر الله -؛ ولكن ذكره عنده ما يعرض من الأمور، فإن كان طاعة لله فعلته، وإن كان معصية لله اجتنبته.

وروى عن بعضهم أنه قال: « ثلاثة في ظلّ عرش الله يوم لا ظلّ إلا ظلّه: رجل لم يعب أخاه بعيب فيه مثله حتّى يصلح ذلك العيب من نفسه، فإنّه لا يصلحه حتى يهجم على آخر، فتشغله عيوبه عن عيوب الناس.

ورجل لم يقدّم يدًا ولا رجلاً حتى يعلم أفى طاعة الله هو أم في معصيته؟.

ورجل لم يلتمس من الناس إلا مثل ما يعطيهم من نفسه؛ أما تحبون أن تنصفوا؟!!.» .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: « رحم الله عبداً أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله، وشغله عيبه عن عيوب الناس» .

وقال عيسى بن مريم: « يا بني إسرائيل!!. أيرى أحدكم القذاة في عين أخيه ويغبى عن الجذع المعترض في عينه»

وقيل لعيسى بن مريم: ما أفضل أعمالك؟؛ قال: تركى ما لا يعنيني.

وقال عمرو بن عبيد: أعيتنى ثلاث خلال: تركى ما لا يعنيني، ودرهم من حلّه، وأخ احتجت الى ما في يديه بذله لي.

وما أحقّ من أحصيت ألفاظه وليس من قول يبدر منه إلا لديه رقيب عتيد، ومن أحصيت عليه مثاقيل الذّرّ واستشهد عليه جلده وجوارحه أن يضبط لسانه.

وقد جاء في بعض الآثار: من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه؛ وكلّ امرء فحسيب نفسه، غير مأخوذ بغيره، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقرابة. وقال الله جلّ ثناؤه ـ وقوله الحقّ ـ :﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ ﴾. . وقال:﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ. ﴾ .

وليس الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر إلا مع السّيف والسّوط.

وقال بعض الحكماء: شيئان لا صلاح لأحدهما إلا بالآخر: اللسان والسّيف.

وأنت إذا تأمّلت أكثر ما يتناجى به المتحدّثون وجدت أكثر السائلين يسأل عما لا يعنيه، ويكترث لما لا يكرثه، ويعنى بما لا ينفعه ولا يضرّه، وأكثر المجيبين يجيب ولم يسأل، ويتكلّف ما لا يعلم، ولو قال له قائل: من سألك لافتضح، ولو حاجّه فيما ادّعى ووقفه لا نقطع.

قال الله ـ عز وجلّ ـ: ﴿ قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. ﴾.

ومرّ هشام بن عبد الملك ببعض أهل الكلفة والفضول، وعليه حلّة ذيّالة يسحبها في التّراب، فقال له المتكلف: يا هذا!!. إنّك قد أفسدت ثوبك؟!!.

قال: وما يضرّك من ذلك؟!! ؛ قال: ليتك ألقيته في النار!! ؛قال: وما ينفعك من ذلك؟!!.

فأفحمه غاية الإفحام.

ولو تهيّأ للمتكلّفين في كل وقت مثل صرامة هشام لازدجر من به حياء منهم، ولقلّت الفضول والكلف والغيبة

قالوا: وليس من أحد أذلّ من مغتاب، لأنّه يخفى شخصه، ويطامن حسّه، ويغّض من صوته، ولا يزيد بما يناله من ذلك إلا بأن يرفع من قدر خصمه ويعظّم من شأنه.

قال معاوية: أتدري من النبيل؟ ؛ هو الذي إذا رأيته هبته، وإذا غاب عنك اغتبته.

وهي لعمري سبيل العظماء عند العوامّ، والملوك عند الرعيّة، والسّادة عند العبيد.

فلم يأخذ المغتاب ممن اغتابه شيئاًبعضيهته إيّاه إلا والذي أعطى من الهيبة عند حضوره أكثر منه.

ولو كان المغتاب لا يستتر من الغيبة إلا ممّن يخاف سطوته، كان أعذر؛ ولكن اللّؤم المتمكّن منه يحمله على اغتياب عبده وأمته، فضلاً عن كفئه ونظيره.

ويغتاب الرجل عند عدوّه والمشاحن له، مساعدة له بالسّخف، وتقرّباً إليه بالمهانة والضّعف، من غير أن يكون له عليه طول، أو يلتمس منه على ماتقرّب به إليه جزاءً أو شكوراً.

ثم لعلّه ينكفىء الى الذي اغتابه وقصبه من ساعته ويومه، فيعطيه في عدوّه الذي اغتابه عنده أيضاً مثل ذلك وأكثر منه، لا لعلّة أيضاً ولا مرفق ولا ربح أكثر من الذّلّة التي يجدها في نفسه، والضّعف في منّته، كما يعظّم الغنيّ بغير ثمن، ويحتقر الفقير بغير سبب، فمتى كوشف أو عوتب لبسته ذلة أخرى من الكظّة بالمعاذر الكاذبة، والاعتصام بالأيمان الفاجرة !!.

ومن كانت هذه دربته فهو حريّ أن يطّلع على دخلة أمره، فلا يقبل منه عذر، ولا يصدّق في قول ولا حلف، وقد تسربل الذّلّة، وتدرّع الخضوع.

وليس من سوس النفس الكريمة الشّهمة، أن تلقى الناس بخلاف ما يتخلّقون به ما لم تأت ضرورة يحتاج فيها الى كيد وغيلة، او مكر وحيلة، ويثار

بالغيبة فيها الرأي الأصيل من مكانه، فيفعل ذلك العاقل فيما يحلّ له ويحسن به، بعد أن تعييه الحيلة في استصلاح ذلك العدوّ بالرفق والملاينة.

وإنما قيل: « قلّ من اعتذر إلا كذب» ، لكثرة النّطف في الناس وضعف أنفسهم على الإقرار بالذّنب، فلا ذلّة الضّعف الثاني في الاعتذار نهت عن كلفة الضّعف الأوّل في الاغتياب، ولا كلفة الضّعف الأوّل صانت عن ذلّة الضّعف الثاني.

وعلى أنّ أكثر من يعتذر إليه بقابل للعذر على حقيقة وإن أظهر القبول، لما جرّب من سخاء النّاس بالأيمان، وبعدهما من الإقرار بالذنب ما لم تأت حجة واضحة، ودليل شاهد عدل.

وإذا كانت هذه سبيل المعتذر إليه فيحقّ على المعتذر - إن كانت في نفسه قيمة - أن لا يعتذر إلا لمن يحبّ أن يجد له عذراً، ولا يعجل الى المين وهو لا يجد للحجّة مكاناً.

وأكثر من يعتذر إليه إنما يفعل ذلك به خوفاً من سقطته، وإبقاءً لسلطانه.

والمتفقّهون يتأوّلون في الأيمان السّلطانية ما يلحق بها عند السّلطان الهّمة، ويلزمهم الظّنّة، سيّما في الأمور التي في الإقرار بها إباحة الدّم والمال، وهتك السّتر.

ولا حسم لهذا الداء إلا باطّراح الفضول، وسلامة اللسان من أن يلغ فى الأعراض، ويستسرّ بالعضيهة والبهت.

قال رسول الله - ﷺ -: « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

ومن لم يسلم الناس منه فليس سالماً من نفسه.

وقال القائل: احرس أخاك إلا من نفسه.

وقالوا: مقتل المرء بين فكّيه.

وكتب على بعض أبواب المدن بالسّند: احفظ رأسك.

وقال الاوّل: قد تصل النّصال إلى الإخوان فتستخرج، وأمثال النّصال من القول إذا وصلت الى القلب لم تستخرج أبداً.

وقال بهرام ـ وسمع في اللّيل صوت طائر فتحدّاه بسهم وهو لا يراه، إلا أنّه تتّبع الصّوت فصرعه، فلما صار بين يديه ـ ؛ قال: والطّير أيضاً لو سكت كان خيراً له!.

وقيل: ما شيء أحقّ بطول سجن من لسان.

وقيل: يسأل اللسان الأعضاء في كلّ يوم ؛ فيقول: كيف أنتنّ؟ ؛ فيقلن: بخير إن تركتنا!.

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ لمعاذ بن جبل: « وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النّار إلا حصائد ألسنتهم ؟!! » .

وقال عيسى عليه السلام: «أعمال البّر ثلاثة: المنطق، والنظر، والصّمت ؛ فمن كان منطقه في غير ذكر الله فقد لغا، ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته في غير تفكّر فقد لها » .

فانظر بأيّ الأمرين قطعت عمرك ؟!! أبالحكمة أم باللّغو؟ وانظر كيف وصف الله ـ تعالى ـ من أثنى عليه بخير من عباده ؛ فقال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ .

، وقال: ﴿ وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ .

، وقال: ﴿ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾

. وصان عنه أسماع أهل الجنّة وألسنتهم ؛ فقال: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً. إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً.﴾ .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: « العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصّمت» .

وقال علي بن أبي طالب: « أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج » .

وقال بعض الحكماء: لو لم يكن للصّامت في صمته إلا الكفاية لأن يتكلّم بكلام ويحكى عنه محرّفاً فيضطرّ الى ان يقول: ليس هكذا قلت ؟!! ، إنّما قلت كذا وكذا ؛ فيكون إنكاره إقراراً، واعترافه بما حكى عنه شاهداً لمن وشى به، وادّعاء لتحريف غير مقبول منه إلا أن يأتي ببيّنة له ؛ لكان ذلك من أكثر فضائل الصّمت.

وربّما ذكر رجل الله ـ تبارك وتعالى ـ ، فكان ذلك الذّكر إثماً له، لأنه قد يدخله في باب تفخيم الذنب الحقير والإغراء والتّحريض، فيسفك الدم الحرام، أو يعظّم الجرح الصغير ؛ بل ربّما ضحك وتبسّم، فأغرى وحرّض، وأثم وأوبق.

قال بعض الشعراء:

فإن شئت أدلى فيكما غير واحدٍ
مجاهرة أو قال عندي في سرٍّ
فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما
ضحكت له حتى يلجّ ويستشري

وقالت العرب: «من كفي شرّ لقلقه وذبذبه وقبقبه فقد كفي الشرّ».

وهذا باب لولا أن نشغل القارىء لهذا الكتاب بغير ما قصدنا إليه وعزمنا عليه لأتينا عليه ؛ وهو كثير موجود لمن طلبه، وجملة واحدة فيها كفاية، فإنّما تختلف الألفاظ التي تجعل كسوة لتلك المعاني ؛ وإلا فإنّك إذا نظرت الى جميع شرور الدّنيا وجدت أوّلها كلمة عارت فجنت حرباً عواناً، كحرب بكر وتغلب ابنى وائل، وعبس وذبيان ابنى بغيض، والأوس والخزرج ابنى قيلة، والفجار الأول والثاني، وعامّة حروب العرب والعجم. وإذا تأمّلت أخبار الماضين لم تحص عدد من قتله لسانه وكان هلاكه في كلمة بدرت منه.

وليس العجب ممن أفضى بسرّه الى من ليس له بموضع، ممّن تقدّمت معرفته وزالت الشّكوك عنه في أمره، ولكنّ العجب عين العجب ممن استنام بسرّه الى من لم تقدم معرفته ومن أنس إليه عن اللّقاءة واللّقاءتين، دون معرفة العين والاسم، والسّبب والنّسب، فانخدع في أوّل وهلة وغبن عقله قبل أن يغبن دينه وماله، وتضاعفت عليه البليّة بطول الحسرة، فإنّ البلاء عارض

ومكتسب، فكان العارض السّماويّ وما خوّلته الأقدار سرّاً بعد اجتهاد صاحبه رأيه، وحيلته فى طلب الخير وصواب تدبيره فيه ؛ أسهل وأيسر على العاقل المعتاد للصواب، وإن كان كل مكروه مُرّاً بشعاً.

وإنّما الكرب اللازم والداء العياء ما اجتمع على صاحبه مع الفجيعة والحاجة، والنّقص والذّلّة، غمّ النّدامة والأسف على ما فرط منه، إذ كان الجاني على نفسه بيده.

ولهذا الكلام نظر نكره التطويل به، والمعنى واحد، وإنّما نحتاج من هذا ومثله ـ ممّا قدّمت ذكره في الكتاب ـ إلى حفظ السرّ ووزن القول، وإلى هذا أجرينا، وله قصدنا.

ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرف مما فيه، لكان بإذن الله كافياً لمن له لبّ وعقل، لكنّ الاحتجاج أوكد، والإيضاح أبلغ، والحظّ في هذا القول كلّه لمن عقله والآخذ به، أوفر [منه] لمن قاله ولم يعمل بقوله، لأنه إنما يجتنى ثمرة الصواب، ويختلف برفقه من صدّق قوله بفعله، فإنّ الحكمة قول وعمل، وإنّما حظّ القائل ما لم يستعمل علمه وقوله حظّ الواصفين، وحسن الصّفة يزول بزوالها، وينقطع بانقطاعها، ومدّتها ـ إلى أن يملها القائل والسامع ـ يسيرة.

والأفعال المحمودة متّصلة النفع والشّرف والفضيلة في الحياة وبعد الوفاة، ومذخور للاعقاب، وحديث جميل، ونشر باق على مرّ الجديدين.

وأكثر من ذلك كلّه توفيق الله وتسديده، فإنّ القلوب في يده، والخيرات مقسومات من عنده.

وحسبنا الله ونعم الوكيل. .﴾ .

ـ ((رسالة الحاسد والمحسود)) :

﴿ وهب الله لك السلامة، وأدام لك الكرامة، ورزقك الاستقامة، ورفع عنك النّدامة.

كتبت إليّ ـ أيّدك الله ـ تسألني عن الحسد ما هو؟ ومن أين هو؟ وما دليله وأفعاله؟ وكيف تعرف أموره وأحواله؟ وبم يعرف ظاهره ومكتومه؟ وكيف يعلم مجهوله ومعلومه؟ ولم صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء؟ ولم كثر في الأقرباء وقلّ في البعداء؟ وكيف دب في الصّالحين أكثر منه في الفاسقين؟وكيف خصّ به الجيران من بين جميع أهل الأوطان؟.

والحسد ـ أبقاك الله ـ داء ينهك الجسد، ويفسد الودّ، علاجه عسر، وصاحبه ضجر. وهو باب غامض وأمر متعذّر، وما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في غناء ؛ ولذلك قال النبي ـ ﷺ ـ: «دبّ إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء» .

وقال بعض الناس لجلسائه: أيّ الناس أقلّ غفلة؟ ؛ فقال بعضهم: صاحب ليل، إنّما همّه أن يصبح.

فقال: إنّه لكذا وليس كذا.

وقال بعضهم: المسافر، إنّما همّه أن يقطع سفره.

فقال: إنه لكذا وليس كذا.

فقالوا له: فأخبرنا بأقلّ النّاس غفلة.

فقال: الحاسد، إنّما همّه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها، فلا يغفل أبداً ويروى عن الحسن أنه قال: الحسد أسرع في الدّين من النار في الحطب اليابس؛ وما أتي المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمه عليه؛ قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً.﴾، والحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضدّ الحقّ، وحرب البيان؛ فقد ذمّ الله أهل الكتاب به؛ فقال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ.﴾؛ منه تتولد العداوة، وهو سبب كلّ قطيعة، ومنتج كلّ وحشة، ومفرّق كلّ جماعة، وقاطع كلّ رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرّق بين القرناء، وملقح الشرّ بين الخلطاء، يكمن في الصدر كمون النّار في الحجر؛ ولو لم يدخل على الحاسد بعد تراكم الغموم على قلبه، واستكمان الحزن في جوفه، وكثرة مضضه ووسواس ضميره، وتنغّص عمره وكدر نفسه وكد عيشه، إلا استصغاره نعمة الله عليه، وسخطه على سيّده بما أفاد غيره، وتمنّيه عليه أن يوجع في هبته إيّاه، وأن لا يرزق أحداً سواه، لكان عند ذوي العقول مرحوماً، وكان لديهم في القياس مظلوماً.

وقد قال بعض الأعراب: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحساد: نفس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم؛ والحاسد مخذول وموزور، والمحسود محبوب ومنصور؛ والحاسد مغموم ومهجور، والمحسود مغشيّ ومزور.

والحسد ـ رحملك الله ـ أول خطيئة ظهرت في السّموات، وأوّل معصية حدثت في الأرض، خصّ به أفضل الملائكة فعصى ربّه، وقايسه في خلقه، واستكبر عليه؛ فقال: ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾.

فلعنه وجعله إبليساً، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيساً، وشوّه خلقه تشويهاً، وموّه على نبيّه تمويهاً؛ نسي به عزم ربّه، فواقع الخطيئة، فارتدع المحسود وتاب عليه وهدى، ومضى اللعين الحاسد في حسده فشقي وغوى.

وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه، فعصى ربّه وأثكل أباه؛ وبالحسد طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين.

لقد حمله الحسد على غاية القسوة، وبلغ [به] أقصى حدود العقوق، فأنساه من رحمه جميع الحقوق، إذ ألقى الحجر عليه شادخاً؛ وأصبح عليه نادماً صارخاً.

ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيّاً أن يوبّخه على المال فيقول: جمعه حراماً ومنعه آثاماً؛ وألّب عليه محاويج أقاربه فتركهم له خصماء، وأعانهم في الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر؛ وقال له: لقد كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمّك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون؛ وإن وجد له خصماً أعانه عليه ظلماً، وإن كان ممن يعاشره

فاستشاره غشّه، أو تفضّل عليه بمعروف كفره، أو دعاه إلى نصرخذله، وإن حضر مدحه ذمّه ، وإن سئل عنه همزه، وإن كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زلّة عظّمها [وقال: إنّه] يحب أن يعاد ولا يعود، ويرى عليه العقود.

وإن كان المحسود عالماً ؛ قال: مبتدع، ولرأيه متّبع، حاطب ليل ومبتغي نيل، لا يدرى ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل، قد أقبل بوجوه النّاس إليه، وما أحمقهم إذ انثالوا عليه ؛ فقبحه الله من عالم ما أعظم بليّته، وأقلّ رعته، وأسوأ طعمته.

وإن كان المحسود ذا دين ؛قال: متصنّع يغزو ليوصى إليه، ويحجّ ليثنى بشيء عليه، ويصوم لتقبل شهادته، ويظهر النّسك ليودع المال بيته، ويقرأ في المسجد ليزوّجه جاره ابنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته.

وما لقيت حاسداً قطّ إلا تبيّن لك مكنونه بتغيّر لونه وتخوّص عينه وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك.

وكان عبد الله بن أبيّ ـ قبل نفاقه ـ نسيج وحده ؛ لجودة رأيه، وبعد همّته، ونبل شيمته، وانقياد العشيرة له بالسّيادة، وإذعانهم له بالرّياسة. وما استوجب ذلك إلا بعدما استجمع له لبّه، وتبيّن لهم عقله، وافتقدوا منه جهله، ورأوه لذلك أهلاً، لمّا أطاق [له] حملاً.

فلما بعث الله نبيّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقدم المدينة، ورأى هو عزّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛شمخ بأنفه ؛ فهدم إسلامه لحسده، وأظهر نفاقه. وما صار منافقاً حتّى كان حسوداً، ولا صار حسوداً حتّى صار حقوداً ؛ فحمق بعد اللّبّ، وجهل بعد العقل، وتبوّأ النّار بعد الجنّة.

ولقد خطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة فشكاه الى الأنصار، فقالوا: يا رسول الله ؛ لا تلمه ؛ فإنا كنا عقدنا له الخرز قبل قدومك لنتوّجه.

ولو سلم المخذول قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمكان ؛ومن السؤدد في ارتفاع ؛ فوضعه الله لحسده وأظهر نفاقه ؛ ولذلك قال القائل:

طالت على الحاسد أحزانهْ
فاصفر من كثرة أحزانهْ
دعه فقد أشعلت في جوفهِ
ما هاج في حر نيرانهْ
العيب أشهى عنده لذةً
من لذة المال لخزانهْ
فارم على غاربه حبلهُ
تسلم من كثرة بهتانهْ

ـ فصل :

وذلك أنّ الجيران ـ يرحمك الله ـ طلائع عليك، وعيونهم نواظر إليك، فمتى كنت بينهم معدماً فأيسرت، فبذلت وأعطيت، وكسوت وأطعمت، وكانوا في مثل حالك فاتّضعوا، وسلبوا النعمة وألبستها [أنت] ، فعظمت عليهم بليّة الحسد، وصاروا منه في تنغيص آخر الأبد.

ولولا أن المحسود بنصر الله إيّاه مستور، وهو بصنعه محجوب ؛ لم يأت عليه يوم إلا كان مقهوراً، ولم تأت ليلة إلا وكان عن منافعه مقصوراً ؛ ولم يمس إلا وماله مسلوب، ودمه مسفوك، وعرضه بالضّرب منهوك.

ـ فصل :

وأنا أقول حقاً : ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه، ولا قدر على تسجينه وكتمانه، حتى يتمرّد عليه بظهوره وإعلانه، فيستعبده ويستمليه، ويستنطقه لظهوره عليه ؛ فهو أغلب على صاحبه من السيّد على عبده، ومن السّلطان على رعيّته، ومن الرّجل على زوجته، ومن الآسر على أسيره!!.

وكان ابن الزّبير بالصبر موصوفاً، وبالدّهاء معروفاً، وبالعقل موسوماً، وبالمداراة منهوماً، فأظهر بلسانه حسداً كان أضبّ عليه أربعين سنة لبني هاشم، فما اتّسع قلبه لكتمانه، ولا صبر على اكتتامه، لّما طالت في قلبه طائلته أظهره وأعلنه، مع صبره على المكاره، وحمله نفسه على حتفها، وقلة اكتراثه والتفاته لأحجار المجانيق التي [كانت] تمرّ عليه فتذهب بطائفة من قومه ما يلتفت إليها.

حُدّثت بذلك عن عليّ بن مسهر عن الأعمش، عن صالح بن حبّاب، عن سعيد بن جبير؛ قال: قدت ابن عباس حتّى أدخلته على ابن الزّبير، قال: أنت الذي تؤنّبني؟؛ قال: نعم، لأنّي سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ليس بمؤمن من بات شبعاناً وجاره طاو».

فقال له ابن الزّبير: لمن قلت ذلك؟ إنّي لأكتم بغضكم أهل البيت مذ أربعين سنة!!.

فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنّهما عسيبا نخل، ثم قال لابن الزبير: نعم!! فليبلغ ذاك منك، ما عرفتك!!.

ولقد أجلت الرأي ظهراً لبطن وفكرّت في جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجده، وكانت وخزة في قلبه فلم يبدها.

وفروع بني هاشم حول الحرم باسقة، وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية، ومجالسهم من أعاليها عامرة، وبحورها بأرزاق العباد زاخرة، وأنجمها بالهدى زاهرة؛ فلمّا خلت البطحاء من صناديدها استقبله بما أكنّ في نفسه.

والحاسد لا يغفل عن فرصته إلى أن يأتي الموت على رمّته، وما استقبل ابن عبّاس بذلك إلا لمّا رأى عمر قدّمه على أهل القدم، ونظر إليه وقد أطاف به أهل الحرم، فأوسعهم حكماً، وثقبوا منه رأياً وفهماً، وأشبعهم علماً وحلماً.

ـ فصل:

وكيف يصبر من استكنّ الحسد في قلبه على أمانيه!! ولقد كان إخوة يوسف حلماء، وأجلّة علماء، ولدهم الأنبياء، فلم يغفلوا عمّا قدم في قلوبهم من

الحسد ليوسف، حتّى أعطوا أباهم المواثيق المؤكّدة، والعهودالمقلّدة، والأيمان المغلّظة، إنّهم له لحافظون، وهو شقيقهم وبضعة منهم؛ فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم والقوة، وألقوه في غيابة الجبّ، وجاءوا على قميصه بدم كذب، فبظلمهم يوسف ظلموا أباهم، طمعاً أن يخلو لهم وجه أبيهم وينفردوا بحبه، وظنوا أن الأيام تسليه، وحبه لهم من بعد غمه يلهيه، فاسالوا عبرته وأحرقوا قلبه!!.

وكيف تقر أعين المحسودين بعد يوسف وقد ملكه الله خزائن الأرض بصبره على أذى حساده ومقابلته إياهم بالعفو والمكافأة وحسن العشرة والمؤاخاة، بعدإمكانه منهم؛ كما أتوه محتارين رفدهم عليه خائفين وهم له منكرون، فأحسن رفدهم، وأكرم قِراهم، فأقروا له لما عرفوه بالإذعان، وسألوه بعد ذلك الغفران، وخروا له سجداً لما وردوا عليه وفداً.

ـ فصل:

فإذا أحسست ـ رحمك الله ـ من صديقك بالحسد؛ فأقلل ما استطعت من مخالطته، فإنّه أعون الأشياء لك على مسالمته، وحصّن سرّك منه تسلم من شرّه وعوائق ضرّه؛ وإيّاك والرغبة في مشاورته، ولا يغرنّك خدع ملقه، وبيان ذلقه، فإنّ ذلك من حبائل نفاقه.

فإن أردت أن تعرف آية مصداقه فأدنين إليه من يهينك عنده، ويذمّك بحضرته، فإنّه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل، ومن خلاف المودّة ما

أنت عنه غافل ؛ وهو ألحّ في حسده لك من الذّباب ، وأسرع في تهريقك من السّيل إلى الحدور.

وما أحبّ أن تكون عن حاسدك غبيّاً ، وعن وهمك بما في ضميره نسيّاً ؛ إلا أن تكون للذلّ محتملاً ، وعلى الدناءة مشتملاً ، ولأخلاق الكرام مجانباً ، وعن محمود شيمهم ذاهباً ، أو تكون بك إليه حاجة قد صيّرتك لسهام الرّماة هدفاً ، وعرضك لمن أراد غرضاً.

وقد قيل على وجه الدّهر : « الحرّة تجوع ولا تأكل بثديها » .

وربّما كان الحسود للمصطنع إليه المعروف أكفر له وأشدّ احتقاداً ، وأكثر تصغيراً له من أعدائه.

ـ فصل :

ومتى رأيت حاسداً يصوّب لك رأياً إن كنت مصيباً ، أو يرشدك إلى صواب إن كنت مخطئاً ، أو أفصح لك بالخير في غيبته عنك أو قصّر من غيبته لك؟ فهو الكلب الكلب ، والنّمر النّمر ، والسّمّ القشب ، والفحل القطم ، والسّيل العرم ؛ إن ملك قتل وسبى ، وإن ملك عصى وبغى ، حياتك موته ، وموتك عرسه وسروره ؛ يصدّق عليك كلّ شاهد زور ، ويكذّب فيك كلّ عدل مرضيّ ؛ لا يحبّ من النّاس إلا من يبغضك ، ولا يبغض إلا من يحبّك ؛ عدوّك بطانة وصديقك علانية.

وقلت : إنّك ربّما غلطت في أمره لما يظهر لك من برّه؟!!.

ولو كنت تعرف الجليل من الرأي، والدقيق من المعنى، وكنت في مذاهبك فطناً نقاباً، ولم تك في عيب من ظهر لك عيبه مرتاباً، لا ستغنيت بالرّمز عن الإشارة، وبالإشارة عن الكلام، وبالسّرّ عن الجهر، وبالخفض عن الرفع، وبالاختصار عن التطويل، وبالجمل عن التفصيل، وأرحتنا من طلب التحصيل؛ ولكني أخاف عليك أنّ قلبك لصديقك غير مستقيم، وأن ضمير قلبك له غير سليم، وإن رفعت القذى عن لحيته، وسوّيت عليه ثوبه فوق مركبه، وقبّلت صبيّه بحضرته، ولبست له ثوب الاستكانة عند رؤيته، واغتفرت له الزّلّة، واستحسنت كلّ ما يقبح من جهته، وصدّقته على كذبه، وأعنته على فجرته.

فما هذا العناء!! كأنّك لم تقرأ المعوّذة، ولم تسمع مخاطبته نبيّه ـ ﷺ ـ في التّقدمة إليه بالاستعاذة من شرّ حاسد إذا حسد؟!!.

أتطلب ـ ويحك ـ أثراً بعد عين؟!! أو عطراً بعد عروس؟!! أو تريد أن تجتني عنباً من شوك؟!! أو تلتمس حلب لبن من حائل؟!! إنّك إذن أعيا من باقل!! وأحمق من الضبع!! وأغفل من هرم!!.

إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك، وتعوجّ بعدما قوّمناك، وتبلّد بعدما ثقّفناك، وتضلّ إذ هديناك، وتنسى إذ ذكّرناك، فأنت كمن أضلّه الله على علم فبطلت عنده المواعظ، وعمي عن المنافع، فختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة!!.

فنعوذ بالله من الخذلان.

إنّه لا يأتيك ؛ ولكن يناديك ؛ ولا يحاكيك ؛ ولكن يوازيك ؛ أحسن ما تكون عنده حالاً [أقلّ ما تكون مالاً ، وأكثر ما تكون عيالاً ، [وأعظم] ما تكون ضلالاً ؛ وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ما تكون من الناس حمداً.

فإذا كان الأمر على هذا ؛ فمجاورة الموتى ، ومخالطة الزّمنى ، والاجتنان بالجدران ، ومصر المصران ، وأكل القردان ؛ أهون من معاشرته ، والاتّصال بحبله. والغلّ نتيج الحسد ، وهو رضيعه ، وغصن من أغصانه ، وعون من أعوانه ، وشعبة من شعبه ، وفعل من أفعاله ، كما أنّه ليس فرع إلا له أصل ، ولا مولود إلا له مولد ، ولا نبات إلا من أرض ، ولا رضيع إلا من مرضع ، وإن تغيّر اسمه ، فإنّه صفة من صفاته ، ونبت من نباته ، ونعت من نعوته.

ـ فصل :

ورأيت الله ـ جل جلاله ـ ذكر الجنّة في كتابه فحلاها بأحسن حلية ، وزيّنها بأحسن زينة ، وجعلها دار أوليائه ومحلّ أنبيائه ، ففيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ فذكر في كتابه ما منّ به عليهم من السّرور والكرامة عندما دخلوها وبوّأها لهم ؛ فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ. وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ. لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ. ﴾ ؛ فما أنزلهم دار كرامته إلا بعد ما نزع الغلّ والحسد من قلوبهم ، فتهنّوا بالجنّة ، وقابلوا إخوانهم على السّرر ، وتلذّذوا بالنظر في مقابلة الوجوه لسلامة

صدورهم ؛ ونزع الغلّ من قلوبهم ؛ ولو لم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجه من قلوبهم ، لافتقدوا لذاذة الجنّة ، وتدابروا وتقاطعوا وتحاسدوا ، وواقعوا الخطيئة ، ولمسّهم فيها النّصب ، وأعقبوا منها الخروج ، لأنّه - عزّ وجلّ - فضّل بينهم في المنازل ، ورفع درجات بعضهم فوق بعض في الكرامات ، وسنيّ العطيات ؛ فلمّا نزع الغلّ والحسد من قلوبهم ظنّ أدناهم منزلة فيها ، وأقربهم بدخول الجنّة عهداً ، أنّه أفضلهم منزلة ، وأكرمهم درجة ، وأوسعهم داراً بسلامة قلبه ، ونزع الغلّ من صدره ، فقرّت عينه وطاب أكله ؛ ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التنغيص في النظر بالعيون ، والاهتمام بالقلوب ، ولحدثت العيوب والذّنوب.

- فصل :

وما أرى السّلامة إلا في قطع الحاسد ، ولا السّرور إلا في افتقاد وجهه ، ولا الرّاحة إلّا في صرم مداراته. ولا الرّبح إلا في ترك مصافاته.

فإذا فعلت ذلك فكل هنيّاً مريّاً ، [ونم رضيّاً] ، وعش في السّرور مليّاً !!

ونحن نسأل الله الجليل أن يصفّي كدر قلوبنا ، ويجنّبنا وإياك [دناءة الأخلاق ، ويرزقنا وإيّاك] حسن الألفة والاتّفاق ؛ ويحسن توفيقك وتسديدك.

والسّلام. .﴾ .

قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريُّ :

﴿ أما بعد حمد الله بجميع محامده، والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة على رسوله المصطفى وآله:

فإنِّي رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيِّرين، ولأهله كارهين: أما النَّاشئ منهم فراغب عن التعليم، والشَّادي تارك للازدياد، والمتأدِّب في عنفوان الشباب ناسٍ أو متناسٍ؛ ليدخل في جملة المجدودين، ويخرج عن جملة المحدودين؛ فالعلماء مغمورون، وبكرَّة الجهل مقموعون؛ حين خوى نجم الخير، وكسدت سوق البرِّ، وبارت بضائع أهله، وصار العلم عاراً علَى صاحبه، والفضل نقصاً، وأموال الملوك وقفاً علَى شهوات النفوس، والجاه الَّذي هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق، وآضت المروءات في زخارف النَّجد وتشييد البُنيان، ولذَّات النفوس في اصطفاق المزاهر ومعاطاة الندمان، وَنُبِذَت الصنائع، وجُهل قدر المعروف، وماتت الخواطر، وسقطت همم النفوس، وزُهد في لسان الصدق، وَعُقِّدَ الملكوت؛ فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشِّعر أبياتاً في مدح قَيْنَة أو وصف كأس، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب، وينظر في شيء من القضاء وحدِّ المنطق، ثمَّ يعترض علَى كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه، وعلى حديث رسول الله ـ ﷺ ـ بالتكذيب وهو لا يدري من نقله، قد رضي عوضاً من الله ومما عنده بأن يقال: فلان

لطيف، وفلان دقيق النظر يذهب إلى أن لُطف النظر قد أخرجه عن جملة النَّاس وبلغ به علم ما جهلوه؛ فهو يدعوهم الرَّعاع والغُثاء والغُثْر، وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى، وهي به أليق؛ لأنه جهل وظنَّ أن قد علم، فهاتان جهالتان؛ ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون.

ولو أن هذا المُعجب بنفسه، الزاري على الإسلام برأيه، نظر من جهة النظر لأحياهُ الله بنور الهدى وثَلَجِ اليقين، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب، وفي أخبار الرسول ـ ﷺ ـ وصحابته، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها، فنَصَبَ لذلك وعاداهُ، وانحرف عنه إلى علم قد سلَّمه ولأمثاله المسلمون، وقلَّ فيه المتناظرون، له ترجمةٌ تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم؛ فإذا سمع الغُمْرُ والحدَثُ الغِرُّ قوله: الكون والفساد، وسَمْع الكيان، والأسماء المفردة، والكيفية والكمية، والزمان والدليل، والأخبار المؤلفة؛ راعه ما سمع، وظن أنَّ تحت هذه الألقاب كلَّ فائدة وكلَّ لطيفة، فإذا طالعها لم يَحْلَ منها بطائل، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه، والعَرَضُ لا يقوم بنفسه، ورأس الخط النقطة، والنقطة لا تنقسم، والكلام أربعة: أمر، وخبر، واستخبار، ورغبة؛ ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب، وهي: الأمر، والاستخبار، والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر، والآنُ حدُّ الزمانين، مع هذيان كثير، والخير ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا وكذا مائة من الوجوه، فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه في

كلامه كانت وَبالاً على لفظه، وقيداً للسانه، وعيّاً في المحافل، وعُقْلَة عند المتناظرين.

ولقد بلغني أن قوماً من أصحاب الكلام سألوا محمد بن الجَهْم البرمكيَّ أن يذكر لهم مسألة من حد المنطق حسنة لطيفة، فقال لهم: ما معنى قول الحكيم: «أول الفكرة آخر العمل، وأول العمل آخر الفكرة»؟، فسألوه التأويل، فقال لهم: مَثَلُ هذا رجل قال: «إنِّي صانع لنفسي كِنّاً»، فوقعت فكرته على السقف، ثمَّ انحدر فعلم أن السقف لا يكون إلا على حائط، وأن الحائط لا يقوم إلا على أُسّ، وأن الأُسَّ لا يقوم إلا على أصل، ثمَّ ابتدأ في العمل بالأصل، ثمَّ بالأسِّ، ثمَّ بالحائط، ثمَّ بالسقف؛ فكان ابتداء تفكره آخر عمله، وآخر عمله بدء فكرته؛ فأية منفعةٍ في هذه المسألة؟!! وهل يجهل أحد هذا حتى يحتاج إلى إخراجه بهذه الألفاظ الهائلة؟!!.

وهكذا جميع ما في هذا الكتاب؛ ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعدَّ نفسه من البُكْمِ، أو يسمع كلام رسول الله ـ ﷺ ـ وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفَصْلَ الخطاب.

فالحمد لله الذي أعاذ الوزير أبا الحسن ـ أيده الله ـ من هذه الرذيلة، وأبانه بالفضيلة، وحَبَاه بخيم السلف الصالح، وردَّاه رداء الإيمان، وغشَّاه بنوره، وجعله هُدىً من الضلالات، ومصباحاً في الظلمات، وعرَّفه ما اختلف فيه المختلفون، على سَنَن الكتاب والسُّنَّة؛ فقلوب الخيار له مُعْتَلِقةٌ، ونفوسهم

إليه مائلة، وأيديهم إلى الله فيه مَظانَّ القبول ممتدَّةٌ، وألسنتهم بالدعاء له شافعة: يهجع ويستيقظون، ويغفُل ولا يغفُلون؛ وحُقَّ لمن قام لله مقامه، وصبر على الجهاد صَبْرَهُ، ونوَى فيه نِيَّته، أن يلبسه الله لباس الضمير، ويُرَدِّيه رداء العمل الصالح، ويَصُور إليه مختلفات القلوب، ويُسعده الصدق في الآخرين.

فإني رأيتُ كثيراً من كُتَّاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدَّعَة واستوطؤُا مركب العجز، وأعفَوْا أنفسهم من كدِّ النظر وقلوبهم من تعب التفكر، حين نالوا الدرَك بغير سبب، وبلغوا البِغْية بغير آلةٍ؛ وَلَعمري كان ذاك فأين همةُ النفس؟!!وأين الأَنَفَةُ من مُجانسة البهائم؟!! وأيُّ موقفٍ أخْزَى لصاحبه من موقف رجلٍ من الكتَّاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه وارتضاه لسرّه، فقرأ عليه يوماً كتاباً وفي الكتاب ((ومُطرْنا مطراً كثُر عنه الكلأ))، فقال له الخليفة ممتحناً له: وما الكلأ ؟؛ فتردَّد في الجواب وتعثّر لسانه، ثم قال: لا أدري، فقال: سَلْ عنه؛ ومن مقام آخر في مثل حاله قرأ على بعض الخلفاء كتاباً ذكر فيه ((حاضرُ طيِّء)) فصحَّفه تصحيفاً أضحك منه الحاضرين؛ ومن قول آخر في وصف بِرْذَوْنٍ أهداه ((وقد بعثتُ به إليك أبيض الظهر والشفتين))، فقيل له: لو قلت ((أرْنَمَ أَلْمَظَ)) قال: فبياض الظهر ما هو؟، قالوا: لا ندري، قال: إنما جهلتُ من الشفتين ما جهلتم من الظهر!.

ولقد حضرت جماعة من وجوه الكتَّاب والعمال العلماء بتحلّب الفَيْء وقتل النفوس فيه، وإخراب البلاد، والتوفير العائد على السلطان بالخُسْران

المبين، وقد دخل عليهم رجل من النَّخَّاسين ومعه جاريةٌ رُدت عليه بسنّ شاغية زائدة، فقال: تبرأتُ إليهم من الشَّغَا فردُّوها عليَّ بالزيادة، فكم في فم الإنسان من سِنٍّ؟؛ فما كان فيهم أحد عَرَفَ ذلك، حتى أدخل رجل منهم سَبَّابته في فِيهِ يعُدُّ بها عَوَارضه فسال لُعابُه، وضمَّ رجل فاه وجعل يعدّها بلسانه!!.

فهل يَحْسُن بمن ائتمنه السلطان على رعيته وأمواله ورضي بحكمه ونظره أن يجهل هذا في نفسه؟!! وهل هو في ذلك إلا بمنزلة مَن جهل عدد أصابعه؟!!.

ولقد جرى في هذا المجلس كلامٌ كثيرٌ في ذكر عيوب الرقيق، فما رأيت أحداً منهم يعرف فَرْقَ ما بين الوَكَعِ والكَوَعِ، ولا الحَنَفَ من الفَدَع، ولا اللَّمى من اللَّطَع!!.

فلما أن رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نُقصانٍ، وخشيت أن يذهب رَسْمُه ويعفُوَ أثره؛ جعلت له حظاً من عِنايتي، وجزءاً من تأليفي؛ فعملتُ لُمْغْفِل التأديب كُتُباً خفافاً في المعرفة، وفي تقويم اللسان واليد، يشتمل كلُّ كتاب منها على فن، وأعفيته من التطويل والتثقيل؛ لأنشطه لتحفُّظِه ودراسته إن فاءَتْ به همتهُ وأُقيد عليه بها ما أضلَّ من المعرفة، وأستظهر له بإعداد الآلة لزمان الإدالة أو لقضاء الوَطَر عند تبيّن فَضْل النظر، وألحقه - مع كَلال الحدّ ويُبْس الطينة - بالمُرْهَفِين، وأدخله - وهو الكَوْدَن - في مِضمار العِتَاق.

وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم، ومن الكتابة إلا بالاسم، ولم يتقدم من الأداة، إلا بالقلم والدواة، ولكنها لمن شَدَا شيئاً من

الإعراب: فعرف الصَّدْرَ والمصدر والحال والظرف، وشيئاً من التصاريف والأبنية، وانقلاب الياء عن الواو، والألف عن الياء، وأشباه ذلك.

ولا بد له - مع كتبنا هذه - من النظر في الأشكال لمساحة الأرَضِينَ، حتى يعرف المثلث القائم الزاوية، والمثلث الحادَّ، والمثلث المنفرج، ومساقِطَ الأحجار، والمربَّعات المختلفات، والقِسِي والمدورات، والعَمودَين، ويمتحن معرفته بالعمل في الأرَضِينَ لا في الدفاتر، فإن المَخْبَرَ ليس كالمُعايَنِ؛ وكانت العجم تقول: ((من لم يكن عالماً بإجراء المياه، وحَفْر فُرَضِ المشارب، ورَدْم المهاوي، ومجاري الأيام في الزيادة والنقص، ودَوَران الشمس، ومطالع النجوم، وحال القمر في استهلاله وأفعاله، ووزن الموازين، وذَرْع المثلث والمربَّع والمختلف الزوايا، ونَصْب القناطر والجسور والدَّوالي والنَّواعير على المياه، وحال أدوات الصُّنَّاع ودقائق الحساب؛ كان ناقصاً في حال كتابته)).

ولا بد له - مع ذلك - من النظر في جُمل الفقه، ومعرفة أصوله: من حديث رسول الله - ﷺ - وصحابته، كقوله: ((البيِّنة على المدعي واليمين على المدعى عليه)) ، و ((الخَرَاجُ بالضمان)) ، و ((جُرْح العَجْماء جُبَار)) ، و ((لا يَغلقُ الرهنُ)) و ((المنحة مردودة)) ، و ((العارية مؤدَّاة)) ، و ((الزّعيم غارم)) ، و ((لا وصية لوارث)) ، و ((لا قطع في ثَمَر ولا كَثَرٍ)) ، و ((لا قَوَدَ إلا بحديدة)) ، و ((المرأة تُعاقلُ الرَّجُل إلى ثُلث الدية)) ، و ((لا تَعقلُ العاقلةُ عمداً ولا عبداً ولا صلحاً ولا اعترافاً)) ، و ((لا طلاق في إغلاق)) ، و((البَيِّعَان بالخيار ما لم يتفرَّقا)) ، و((الجار أحقُّ بصَقَبه)) ، و ((الطلاقُ

بالرجـال))، و ((العـدَّة بالنـساء))، وكـ ((نهيـه في البيـوع عـن المخـابرة والمُحاقلة والمُزابنة والمُعاوَمَة والثُّنْيا))، وعن ((ربح ما لم يُضمن))، و ((بيع ما لم يُقبض))، وعن ((بَيْعَتَيْن في بَيْعة))، وعن ((شرطين في بيع))، وعن((بيع وسَلَف))، وعن((بيع الغَرَر)) و ((بيع المُواصفة))، وعـن ((الكـالئ بالكالئ))، وعن ((تلقّي الركبان)).

في أشباه لهذا كثيرة، إذا هو حفظها، وتفهَّم معانيها وتدبَّرها، أغْنَتْه - بإذن الله تعالى - عن كثير من إطالة الفقهاء.

ولا بدَّ له - مع ذلك - من دراسة أخبار الناس، وتحفّظ عيون الحديث؛ ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كتب، ويَصِلَ بها كلامه إذا حَاوَر. ومدارُ الأمر على القُطْب، وهو العقل وجَوْدة القريحة؛ فإن القليل معهما - بإذن الله - كاف، والكثير من غيرهما مقصِّر.

ونحن نستحبُّ لمن قَبل عنا وائتمَّ بكتبنا أن يؤدِّب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذِّب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصونَ مُروءَته عن دناءة الغِيبة، وصِناعته عن شَيْن الكذب، ويجانب - قبل مجانبته اللحنَ وخَطَل القول - شنيع الكلام ورَفَثَ المَزْح.

كان رسول الله ﷺ - ولنا فيه أُسوة حسنة - يمزح ولا يقول إلا حقاً، ومازَحَ عجوزاً فقال: ((إن الجنة لا يدخلها عجوز)).

وكان في عليٍّ - عليه السلام - دُعَابة.

وكان ابن سِيرين يمزح ويضحك حتى يسيل لُعابه، وسئل عن رجل فقال: توفى البارحة، فلما رأى جزع السائل قرأ: «اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها والَّتي لمْ تَمُتْ في مَنَامِها».

ومازح معاوية الأحنف بن قيس فما رؤُي مازحان أوقر منهما، قال له معاوية: يا أحنف! ما الشيء المُلَفَّف في البِجَادِ؟، قال له: السَّخينةُ يا أمير المؤمنين.

أراد معاوية قول الشاعر:

إذا ما ماتَ ميتٌ من تَميمٍ
فسرَّكَ أن يعيشَ فجيء بزادِ
بخبزٍ أو بتمرٍ أو بسَمْنٍ
أو الشيء المُلَفَّفِ في البجادِ
تراهُ يطوفُ في الآفاق حِرْصاً
ليأكلَ رأسَ لقمانَ بنِ عادِ

والملفَّف في البجاد وَطْبُ اللبن، وأراد الأحنف أن قريشاً كانت تُعيَّرُ بأكل السَّخينة، وهي حساء من دقيق يُتَّخذ عند غلاء السِّعر وعَجَف المال وكَلَب الزمان.

فهذا وما أشبهه مَزْحُ الأشراف، وذوي المُرُوءات؛ فأما السَّبَاب وشَتْمُ السَّلَف وذِكْرُ الأعراض بكبير الفَواحش؛ فمما لا نرضاه لخِسَاسِ العبيد وصِغار الولدان.

ونستحبُّ له أن يدع في كلامه التَّقعير والتَّقعيب، كقول يحيى بن يعمر لرجل خاصمته امرأته عنده: « أَأَن سألتْكَ ثَمَنَ شَكْرِهَا وشَبْرِك، أنشأت تَطُلّها وتَضْهَلُها ».!!.

وكقول عيسى بن عمر - ويوسف بن عمر بن هُبَيرة يضربه بالسياط -: « والله إن كانت إلا أُثَيَّاباً في أُسَيْفَاطٍ قَبَضَها عَشَّاروك»!!.

فهذا وأشابهه كان يُستثقلُ والأدب غضٌّ والزمان زمان، وأهله يتحلَّوْنَ فيه بالفصاحة، ويتنافسون في العلم، ويرونه تِلْوَ المقادر في دَرَك ما يطلبون وبلوغ ما يؤمِّلُون، فكيف به اليوم مع انقلاب الحال؟!! وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « إن أَبْغَضَكُم إليَّ الثَّرْثَارونَ المُتَفَيْهِقُونَ المتشدّقون » ؟!!.

ونستحبُّ له - إن استطاع - أن يَعْدِلَ بكلامه عن الجهة التي تُلزمه مستثقَلَ الإعراب؛ ليَسْلم من اللحن وقباحة التقعير؛ فقد كان واصلُ بن عَطَاء سامَ نفسَه لِلُثْغَة كانت به إخراجَ الراء من كلامه، وكانت لُثْغَته على الراء؛ فلم يزل يَرُوضها حتى انقادت له طِبَاعُه، وأطاعه لسانه؛ فكان لا يتكل م في مجالس التناظر بكلمة فيها راء، وهذا أشدُّ وأعسر مَطْلَباً مما أردناه.

وليس حُكم الكتَاب في هذا الباب حُكم الكلام؛ لأن الإعراب لا يَقْبُح منه شيء في الكتَاب ولا يثقُلُ، وإنَّما يُكره فيه وَحْشِيُّ الغريب، وتعقيد الكلام، كقول بعض الكتَّاب في كتابه إلى العامل فوقه: « وأنا مُحتاجٌ إلى أنْ تُنْفِذَ إليَّ جَيْشاً لَجِباً عَرَمْرَمَا »، وقول آخر في كتابه: « عَضَبَ عارِضُ ألمٍ ألمَّ فأنهيتُه

عُذْراً)) وكان هذا الرجل قد أدرك صدراً من الزمان، وأُعطي بَسْطة في العلم واللسان، وكان لا يُشَان في كتابته إلا بتركِهِ سهلَ الألفاظ ومستعمل المعاني، وبلغني أن الحسن بن سهل أيام دولته رآه يكتب وقدر ردَّ عن هاء الله خطأً من آخر السطر إلى أوله، فقال: ما هذا ؟!!، فقال: طُغيان في القلم.

وكان هذا الرجل صاحب جِدٍّ، وأخا وَرَعٍ ودينٍ، لم يمزح بهذا القول، ولا كان الحَسَنُ أيضاً عنده ممن يُمازحُ.

ونستحبُّ له أيضاً أن يُنَزّل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وأن لا يعطيَ خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضيعَ الكلام؛ فإنّي رأيت الكُتَّاب قد تركوا تفقّد هذا من أنفسهم، وخلَّطُوا فيه؛ فليس يفرقون بين من يكتب إليه: ((فَرَأْيَكَ في كذا)) وبين من يكتب إليه: ((فإنْ رأيت كذا)) و((رأيك)) إنما يُكتبُ بها إلى الأكفاء والمساوين، لا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأستاذِين؛ لأن فيها معنى الأمر، ولذلك نُصبَتْ.

ولا يَفْرُقون بين من يكتب إليه: ((وأنا فعلتُ ذلك)) وبين من يكتب إليه: ((ونحن فعلنا ذلك)) ؛ ونحن لا يكتب بها عن نفسه إلا آمرٌ أو ناهٍ؛ لأنها من كلام الملوك والعظماء، قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ((إنَّا نحنُ نزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لهُ لَحَافِظُونَ)) . وقال: ((إنَّا كلَّ شيءٍ خَلَقْناهُ بقَدَرٍ)) .

وعلى هذا الابتداء خوطبوا في الجواب، فقال تعالى حكاية عمن حضره الموت: ((رَبِّ ارجعونِ لَعَلّي أَعملُ صالحاً فيما تركتُ)) ، ولم يقل ((ربّ ارجعن)).

وربما صدَّرَ الكاتب كتابه بـ : ((أكرمك الله)) و : ((أبقاك)) ، فإذا توسط كتابه، وعدَّد على المكتوب إليه ذنوباً له، قال: ((فَلَعَنَكَ اللُه وأَخْزاكَ)) !! فكيف يكرمه الله ويلعنه ويخزيه في حال؟!! وكيف يُجمع بين هذين في كتاب؟!!.

وقال أبْرَويزُ لكاتبه في تنزيل الكلام: ((إنما الكلام أربعة: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وخبرُك عن الشيء؛ فهذه دعائم المقالات، إن التُمس إليها خامس لم يوجد، وإن نقص منها رابع لم تتم؛ فإذا طلبتَ فأسجِحْ، وإذا سألت فأوضِحْ، وإذا أمرتَ فأحْكِمْ، وإذا أخبرتَ فحقق)).

وقال له أيضاً: ((واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول)) ؛ يريد الإيجاز، وهذا ليس بمحمود في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، ولو كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرَّده الله - تعالى - في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرَّر تارة للإفهام، وعِلَلُ هذا مستقصاةٌ في كتابنا المؤلف في((تأويل مُشْكل القرآن)) .

وليس يجوز لمن قام مقاماً في تحضيض على حرب أو حَمَالة بدم أو صلح بين عشائر أن يُقلِّل الكلام ويختصرهُ، ولا لمن كتب إلى عامَّةٍ كتاباً في فتحٍ أو استصلاحٍ أن يوجز.

ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير عن المعصية كتاب يزيد ابن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكّؤُهُ في بيعته: ((أمَّا بعد ؛

فإني أراكَ تُقدِّم رِجْلاً وتؤخِّرُ أُخرى، فاعتمدْ على أيتهما شئت، والسلام))؛ لم يعمل هذا الكلام في أنْفُسها عملهُ في نفس مروان، ولكن الصواب أن يُطيل ويُكرِّر، ويعيد ويُبدئ، ويُحذِّر ويُنذِرُ.

هذا منتهى القول فيما نختاره للكاتب؛ فمن تكاملت له هذه الأدوات، وأمدَّه الله بآداب النفس؛ من: العفاف، والحلم، والصبر، والتواضع للحق، وسكُونِ الطائر، وخَفْضِ الجَنَاح؛ فهذا المتناهي في الفضل، العالي في ذُرَى المجد، الحاوي قَصَبَ السبق، الفائزُ بخير الدارين - إن شاء الله تعالى -﴾.

- المنتخب من((عيون الأخبار)) :

﴿ الحمد لله الذي يعجز بلاؤه صفة الواصفين، وتفوت آلاؤه عدد العادّين، وتسع رحمته ذنوب المسرفين.

والحمد الله الذي لا تحجب عنه دعوة، ولا تخيب لديه طِلْبَةٌ، ولا يضل عنده سعي، الذي رضي عن عظيم النعم بقليل الشكر، وغفر بعقد الندم كبير الذنوب، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين.

والحمد لله الذي ابتعث فينا البشير النذير السراج المنير؛ هادياً إلى رضاه، وداعياً إلى محابّته، ودالاً على سبيل جنته؛ ففتح لنا باب رحمته، وأغلق عنا باب سخطه.

صلى الله وملائكته المقرّبون عليه، وعلى آله وصحبه أبداً؛ ما طما بحر، وذرّ شارق؛ وعلى جميع النبيين والمرسلين.

أما بعدُ؛ فإنّ لله في كل نعمة أنعم بها حقاً، وعلى كل بلاء أبلاه زكاة:

فزكاة المال الصدقة، وزكاة الشرف التواضع، وزكاة الجاه بذله، وزكاة العلم نشره، وخير العلوم أنفعها، وأنفعها أحمدها مغبّة، وأحمدها مغبّة ما تعلّم وعلّم لله وأريد به وجه الله تعالى.

ونحن نسأل الله تعالى ـ جلّ وعلا ـ أن يجعلنا بما علمنا عاملين ،وبأحسنه آخذين، ولوجهه الكريم بما نستفيد ونفيد مريدين، ولحسن بلائه عندنا عارفين، وبشكره آناء الليل والنهار هارفين ؛ إنه أقرب المدعوّين وأجود المسؤولين.

وإني كنت تكلفت لمغفل التأدب من الكتّاب كتاباً من المعرفة وفي تقويم اللسان واليد ؛ حين تبيّنت شمول النقص ودروس العلم وشغل السلطان عن إقامة سوق الأدب حتى عفا ودرس، بلغت به فيه همّة النفس وثلج الفؤاد ،وقيّدت عليه به ما أطرفني الإله ليوم الإدالة، وشرطت عليه مع تعلّم ذلك تحفّظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كاتب، ويستعين بما فيها من معنى لطيف ولفظ خفيف حسن إذا حاور.

ولما تقلّدت له القيام ببعض آلته دعتني الهمة إلى كفايته، وخشيت إن وكلته فيما بقي إلى نفسه وعوّلت له على اختياره أن تستمرّ مريرته على التهاون ويستوطىء مركبه من العجز فيضرب صفحاً عن الآخر كما ضرب صفحاً عن الأوّل، أو يزاول ذلك بضعف من النية وكلال من الحدّ فيلحقه خور الطباع وسآمة الكلفة ؛ فأكملت له ما ابتدأت، وشيّدت ما أسّست، وعملت له في ذلك من طبّ لمن حبّ، بل عمل الوالد الشفيق للولد البرّ، ورضيت منه بعاجل الشكر، وعوّلت على الله في الجزاء والأجر.

فإنّ هذا الكتاب، وإن لم يكن في القرآن والسّنّة وشرائع الدين وعلم الحلال والحرام؛ دال على معالي الأمور، مرشد لكريم الأخلاق، زاجر عن الدناءة، ناه عن القبيح، باعث على صواب التدبير وحسن التقدير ورفق السياسة وعمارة الأرض؛ وليس الطريق إلى الله واحداً، ولا كل الخير مجتمعاً في تهجّد الليل وسرد الصيام وعلم الحلال والحرام؛ بل الطرق إليه كثيرة وأبواب الخير واسعة، وصلاح الدين بصلاح الزمان، وصلاح الزمان بصلاح السلطان، وصلاح السلطان بعد توفيق الله بالإرشاد وحسن التبصير. وهذه «عيون الأخبار»؛ نظمتها لمغفل التأدب تبصرة، ولأهل العلم تذكرة، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدّباً، وللملوك مستراحاً من كدّ الجدّ والتعب. وصنّفتها أبواباً، وقرنت الباب بشكله، والخبر بمثله، والكلمة بأختها؛ ليسهل على المتعلم علمها، وعلى الدارس حفظها، وعلى الناشد طلبها؛ وهي لقاح عقول العلماء، ونتاج أفكار الحكماء، وزبدة المخض، وحلية الأدب، وأثمار طول النظر، والمتخيّر من كلام البلغاء وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السلف.

جمعت لك منها ما جمعت في هذا الكتاب؛ لتأخذ نفسك بأحسنها، وتقوّمها بثقافها، وتخلّصها من مساوىء الأخلاق كما تخلص الفضة البيضاء من خبثها، وتروضها على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم، وتصل بها كلامك إذا حاورت، وبلاغتك إذا كتبت، وتستنجح بها حاجتك إذا سألت، وتتلطف في القول إن شفعت، وتخرج من

اللوم بأحسن العذر إذا اعتذرت ؛ فإنّ الكلام مصايد القلوب والسحر الحلال ، وتستعمل آدابها في صحبة سلطانك وتسديد ولايته ورفق سياسته وتدبير حروبه ، وتعمر بها مجلسك إذا جددت وأهزلت ، وتوضح بأمثالها حججك ، وتبذّ باعتبارها خصمك ؛ حتى يظهر الحقّ في أحسن صورة ، وتبلغ الإرادة بأخف مؤونة ، وتستولي على الأمد وأنت وادع ، وتلحق الطّريدة ثانياً من عنانك ، وتمشي رويداً وتكون أوّلاً ؛ هذا إذا كانت الغريزة مواتية ، والطبيعة قابلة ، والحسّ منقاداً ؛ فإن لم يكن كذلك ففي هذا الكتاب ؛ لمن أراه عقله نقص نفسه ؛ فأحسن سياستها ، وستر بالأناة والرويّة عيبها ، ووضع من دواء هذا الكتاب على داء غريزته ، وسقاها بمائه ، وقدح فيها بضيائه ، ؛ ما نعش منها العليل ، وشحذ الكليل ، وبعث الوسنان ، وأيقظ الهاجع ؛ حتى يقارب بعون الله رتب المطبوعين.

ولم أر صواباً أن يكون كتابى هذا وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ، ولا على خواص الناس دون عوامّهم ، ولا على ملوكهم دون سوقتهم ؛ فوفّيت كلّ فريق منهم قسمه ، ووفّرت عليه سهمه ؛ وأودعته طرفاً من محاسن كلام الزهاد في الدنيا وذكر فجائعها والزوال والانتقال وما يتلاقون به إذا اجتمعوا ويتكاتبون به إذا افترقوا في : المواعظ والزهد والصبر والتقوى واليقين وأشباه ذلك ؛ لعل الله يعطف به صادفاً ، ويأطر على التوبة متجانفاً ، ويردع ظالماً ، ويلين برقائقه قسوة القلوب. ولم أخله مع ذلك من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة ؛ لئلا يخرج عن الكتاب

مذهب سلكه السالكون ، وعروض أخذ فيها القائلون ، ولأروّح بذلك عن القارىء من كدّ الجدّ وإتعاب الحق ؛ فإنّ الأذن مجّاجة والنفس حمضة ، والمزح إذا كان حقاً أو مقارباً ، ولأحايينه وأوقاته وأسباب أوجبته مشاكلاً ؛ ليس من القبيح ، ولا من المنكر ، ولا من الكبائر ، ولا من الصغائر ـ إن شاء الله ـ.

وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مرّ بك ـ أيها المتزمّت ـ حديث تستخفه ، أو تستحسنه ، أو تعجب منه ، أو تضحك ؛ له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به.

واعلم أنك إن كنت مستغنياً عنه بتنسكك ؛ فإن غيرك ممن يترخّص فيما تشدّدت فيه محتاج إليه ؛ وإنّ الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيّأ على ظاهر محبتك ، ولو وقع فيه توقّي المتزمّتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك ؛ وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين.

وإذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة ؛ فلا يحملنّك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر خدّك وتعرض بوجهك ؛ فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ؛ وإنما المأثم في : شتم الأعراض ، وقول الزّور ، والكذب ، وأكل لحوم الناس بالغيب.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : ((من تعزّى بعزاء الجاهلية فأعضّوه بهن أبيه ولا تكنوا)) . وقال أبو بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ لبديل بن ورقاء ـ حين قال

للنبيّ ـ ﷺ ـ إنّ هؤلاء لو قد مسّهم حزّ السلاح لأسلموك ـ: «إعضض ببظر اللّات !! ، أنحن نسلمه؟!! » .

وقال عليّ بن أبي طالب ـ صلوات الله عليه ـ: « من يطل أير أبيه ينتطق به» . وقال الشاعر في هذا المعنى بعينه:

فلو شاء ربّي كان أيـر أبيكمُ

طويلاً كأير الحارث بن سدوسِ.

قال الأصمعيّ: كان للحارث بن سدوس أحد وعشرون ذكراً!!.

وقيل للشّعبيّ: إن هذا لا يجيء في القياس؟!! فقال: أير في القياس، الولد ذكر. وليس هذا من شكل ما تراه في شعر جرير والفرزدق ؛ لأنّ ذلك تعيير وابتهار في الأخوات والأمهات وقذف للمحصنات الغافلات، فتفهّم الأمرين وافرق بين الجنسين.

ولم أترخّص لك في إرسال اللسان بالرّفث على أن تجعله هجيّراك على كل حال وديدنك في كل مقال ؛ بل الترخّص منّي فيه عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها، تنقّصها الكناية ويذهب بحلاوتها التعريض.

وأحببت أن تجري في القليل من هذا على عادة السّلف الصالح في إرسال النّفس على السجيّة والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع.

ولا تستشعر أنّ القوم قارفوا وتنزّهتَ، وثلموا أديانهم وتورّعتَ!!.

وكذلك اللحن إن مرّ بك في حديث من النوادر فلا يذهبنّ عليك أنّا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده ؛ لأنّ الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه

وشاطر النادرة حلاوتها، وسأمثل لك مثالاً: قيل لمزيد المديني ـ وقد أكل طعاماً كظّه ـ: قي؛ فقال: ما أقي، أقي نقاً ولحم جدي؟!! مرتي طالق لو وجدت هذا قياً لأكلته.

ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفّيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ولاستبشعها سامعها؛ وكان أحسن أحوالها أن يكافىء لطف معناها ثقل ألفاظها فيكون مثل المخبر عنها ما قال الأوّل:

إضرب ندى طلحة الخيرات إن فخروا
ببخل أشعث واستثبت وكن حكما
تخرج خزاعة من لؤمٍ ومن كرمٍ
فلا تعدّ لها لؤماً ولا كرما

ولمثل هذا قال مالك بن أسماء في جارية له:

أمغطّى منّي على بصري للـ
ـحبّ أم أنت أكمل الناس حسنا ؟
وحديثٌ ألذّه هو ممّا .
يشتهي الناعتون يوزن وزنا
منطقٌ بارعٌ وتلحن أحيا
ناً وأحلى الحديث ما كان لحنا

وإن مرّ بك خبر أو شعر يتّضع عن قدر الكتاب وما بني عليه؛ فاعلم أنّ لذلك سببين:

ـ أحدهما: قلة ما جاء في ذلك المعنى مع الحاجة إليه.

ـ والسبب الآخر: أن الحسن إذا وصل بمثله نقص نوراهما ولم يتبيّن فاضل بمفضول، وإذا وصل بما هو دونه أراك نقصان أحدهما من الآخر الرجحان، ومدار الأمر وقوامه على واحدة تحتاج إلى أن تأخذ نفسك بها، وهي أن تحضر الكلمة موضعها، وتصلها بسببها، ولا ترى غبناً أن يتكلم الناس وأنت ممسك، فإذا رأيت حالاً تشاكل ما حضرك من القول أحضرته، وفرصة تخاف فوتها انتهزتها، وكان يقال: انتهزوا فرص القول؛ فإن للقول ساعات يضرّ فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب.

وقالوا: «ربّ كلمة تقول: دعني.».

وإن وقفت على باب من أبواب هذا الكتاب لم تره مشبعاً؛ فلا تقض علينا بالإغفال حتى تتصفّح الكتب كلها، فإنه ربّ معنى يكون له موضعان وثلاثة مواضع؛ فنقسم ما جاء فيه على مواضعه، كالتلطف في القول يقع في كتاب السلطان، ويقع في كتاب الحوائج، ويقع في باب البيان، وكالإعتذار يقع في كتاب السلطان، وفي كتاب الإخوان، وكالبخل يقع في كتاب الطبائع، وفي كتاب الطعام، وكالكبر والمشيب يقع في كتاب الزهد، ويقع في كتاب النساء.

واعلم أنّا لم نزل نتلقّط هذه الأحاديث في الحداثة والإكتهال عمن هو فوقنا في السنّ والمعرفة، وعن جلسائنا وإخواننا، ومن كتب الأعاجم وسيرهم، وبلاغات الكتّاب في فصول من كتبهم، وعمّن هو دوننا؛ غير

مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنّاً لحداثته، ولا عن الصغير قدراً لخساسته، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها، فضلاً عن غيرها؛ فإن العلم ضالّة المؤمن من حيث أخذه نفعه، ولن يزري بالحق أن تسمعه من المشركين، ولا بالنصيحة أن تستنبط من الكاشحين، ولا تضير الحسناء أطمارها، ولا بنات الأصداف أصدافها، ولا الذهب الإبريز مخرجه من كبا، ومن ترك أخذ الحسن من موضعه أضاع الفرصة، والفرص تمرّمرّ السّحاب.

عن ابن عباس، قال: ((خذوا الحكمة ممن سمعتموها منه، فإنه قد يقول الحكمة غير الحكيم، وتكون الرّمية من غير الرامي)).

وهذا يكون في مثل كتابنا؛ لأنه في آداب ومحاسن أقوام ومقابح أقوام، والحسن لا يلتبس بالقبيح، ولا يخفى على من سمعه من حيث كان.

فأما علم الدين والحلال والحرام؛ فإنما هو استعباد وتقليد؛ ولا يجوز أن تأخذه إلا عمّن تراه لك حجة ولا تقدح في صدرك منه الشكوك.

وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين إذا كان متخيّر اللفظ لطيف المعنى لم يزّر به عندنا تأخر قائله، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدّمه؛ فكل قديم حديث في عصره، وكل شرف فأوّله خارجيّه، ومن شأن عوامّ الناس رفع المعدوم، ووضع الموجود، ورفض المبذول، وحب الممنوع، وتعظيم المتقدّم وغفران زلته، وبخس المتأخر والتجنّي عليه؛ والعاقل منهم ينظر بعين العدل لا بعين الرضا، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم.

وإني حين قسّمت هذه الأخبار والأشعار وصنّفتها وجدتها على اختلاف فنونها وكثرة عدد أبوابها تجتمع في عشرة كتب بعد الذي رأيت إفراده عنها ؛ وهو أربعة كتب متميزة، كل كتاب منها مفرد على حدته : ((كتاب الشراب)) و((كتاب المعارف)) و((كتاب الشعر)) و ((كتاب تأويل الرؤيا)) .

فالكتاب الأوّل من الكتب العشرة المجموعة : ((كتاب السلطان)) ؛ وفيه الأخبار من محل السلطان، واختلاف أحواله، وعن سيرته، وعما يحتاج صاحبه إلى استعماله من الآداب في صحبته وفي مخاطبته ومعاملته ومشاورته له، وما يجب على السلطان أن يأخذ به في اختيار عمّاله وقضاته وحجّابه وكتّابه وعلى الحكام أن يمتثلوه في أحكامهم ،وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب الثاني : ((كتاب الحرب)) ؛وهذا الكتاب مشاكل لكتاب السلطان ؛ فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً ؛ وفيه : الإخبار عن آداب الحرب، ومكايدها، ووصايا الجيوش، وعن العدد والسلاح والكراع ،وما جاء في السّفر والمسير والطّيرة والفأل، وما يؤمر به الغزاة والمسافرون، وأخبار الجبناء والشجعاء، وحيل الحرب، وغيرها، وشيء من أخبار الدولة، والطالبيّين، وأخبار الأمصار ،وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب الثالث : ((كتاب السّؤدد))، وفيه : الإخبار عن مخايل السؤدد في الحدث، وأسبابه في الكبير ،وعن الهمة السامية ،والخطار بالنفس لطلب

المعـالي، واختلاف الإرادات والأمـاني، والتواضـع، والكـبر، والعجـب، والحياء، والعقل، والحلم، والغضب، والعز، والهيبة، والذلّ، والمروءة، واللباس، والطيب، والمجالسة، والبناء، والمزاح، وترك التصنّع، والتوسط في الأشـياء، وما يكـره مـن الغلـوّ والتقـصير، واليـسار والفقـر، والتجـارة والبيع، والشراء والمداينة، والشريف من أفعال الأشراف والسادة، وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب الرابع: «كتاب الطبائع والأخلاق»؛ وهذا الكتاب مقارب لكتاب السؤدد؛ فضممته إليه وجعلتهما جزءًا واحداً؛ وفيـه: الإخبـار عـن تـشابه النـاس في الطبـائع، وذمّهـم، وعـن مـساوىء الأخـلاق؛ مـن: الحـسد، والغيبـة، والـسّعاية، والكـذب، والقحـة، وسـوء الخلـق، وسـوء الجـوار، والسّباب، والبخل، والحمق، ونوادر الحمقى، وطبائع الحيوان من النـاس والجن والأنعام والسباع والطير والحشرات وصغار الحيـوان والنبـات، ومـا جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب الخامس: «كتاب العلم»؛ وفيه: الإخبار عـن العلـم والعلمـاء والمتعلمين، وعن الكتب، والحفظ، والقرآن، والأثر، والكلام في الدين، ووصايا المؤدّبين، والبيان والبلاغة، والتلطف في الجواب والكلام، وحسن التعريض، والخطب والمقامات، وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب السادس: «كتاب الزهد»؛ وهذا الكتاب مقارب لكتاب العلم؛ فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً؛ وفيه: الإخبار عن صفات الزهّاد، وكلامهم في الزهد والدعاء والبكاء والمناجاة، وذكر الدنيا، والتهجد، والموت، والكبر، والشيب، والصبر، واليقين، والشكر، والاجتهاد، والقناعة، والرضا، ومقامات الزهّاد عند الخلفاء والملوك، ومواعظهم، وغير ذلك، وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب السابع: «كتاب الإخوان»؛ وفيه: الحث على اتخاذ الإخوان واختيارهم، والإخبار عن المودّة والمحبة، وما يجب للصديق، ومخالفته الناس، وحسن محاورتهم، والتلاقي، والزيارة، والمعانقة، والوداع، والتهادي، والعيادة، والتعازي، والتهاني، وذكر شرار الإخوان، وذكر القرابات والولد، والاعتذار، وعتب الإخوان، وتعاديهم، وتباغضهم، وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب الثامن: «كتاب الحوائج»؛ وهذا الكتاب مقارب لكتاب الإخوان؛ فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً؛ فيه: الإخبار عن استنجاح الحوائج بالكتمان، والصبر، والجدّ، والهديّة، والرشوة، ولطيف الكلام، ومن يُعتمد في الحاجة، ومن يُستسعى لها، والإجابة إلى الحاجة والردّ عنها، والمواعيد وتنجّزها، وأحوال المسؤولين عند السؤال في الطّلاقة والعبوس، والعادة من المعروف تقطع، والشكر والثناء والتلطف فيهما، والترغيب في قضاء الحوائج

واصطناع المعروف، والحرص والإلحاح، والقناعة والاستعفاف، وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الآخبار.

والكتاب التاسع : ((كتاب الطعام)) ؛ وفيه: الإخبار عن الأطعمة الطيبة، والحلواء، والسّويق، واللبن ،والتمر، والخبائث منها التي يأكلها فقراء الأعراب ونازلة الفقر، وأدب الأكل ،وذكر الجوع ،والصوم، وأخبار الأكلة والمنهومين، والدعاء إلى المآدب ،والضيافة ،وأخبار البخلاء بالطعام، وسياسة الأبدان بما يصلحها من الغذاء والحمية وشرب الدواء، ومضارّ الأطعمة منافعها ومصالحها، ونتف من طبّ العرب والعجم، وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب العاشر: ((كتاب النساء)) ؛ وهذا الكتاب مقارب لكتاب الطعام. والعرب تدعو الأكل والنكاح الأطيبين ؛فتقول: قد ذهب منه الأطيبان ؛ تريدهما.

فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً ؛ وفيه: الإخبار عن اختلاف النساء في أخلاقهنّ وخلقهنّ، وما يختار منهن للنكاح وما يكره ،واختلاف الرجال في ذلك، والحسن والجمال، والقبح والدّمامة والسواد، والعاهات والعجز، والمشايخ ،والمهور، وخطب النكاح، ووصايا الأولياء عند الهداء، وسياسة النساء ومعاشرتهنّ، والدخول بهنّ والجماع ،والولادات ومساويهن، خلا أخبار عشّاق العرب ؛ فإني رأيت كتاب ((الشعراء)) أولى

بها ؛ فلم أودع هذا الكتاب منها إلا شيئاً يسيراً، وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

فهذه أبواب الكتب ؛ جمعتها لك في صدر أوّلها لأعفيك من كدّ الطلب وتعب التصفّح وطول النظر عند حدوث الحاجة إلى بعض ما أودعتها، ولتقصد فيما تريد حين تريد إلى موضعه فتستخرجه بعينه أو ما ينوب عنه ويكفيك منه، فإن هذه الأخبار والأشعار وإن كانت عيوناً مختارة أكثر من أن يحاط بها أو يوقف من ورائها أو تنتهي حتى ينتهى عنها.

وقد خفّفت وإن كنت أكثرت، واختصرت وإن كنت أطلت، وتوقيت في هذه النوادر والمضاحك ما يتوقّاه من رضي من الغنيمة فيها بالسلامة ومن بعد الشّقة بالإياب، ولم أجد بدّاً من مقدار ما أودعته الكتاب منها لتتممّ به الأبواب.

ونحن نسأل الله أن يمحو ببعض بعضاً، ويغفر بخير شرّاً، وبجدّ هزلاً، ثم يعود علينا بعد ذلك بفضله، ويتغمدنا بعفوه، ويعيذنا بعد طول الأمل فيه وحسن الظنّ به والرجاء له من الخيبة والحرمان .﴾ .